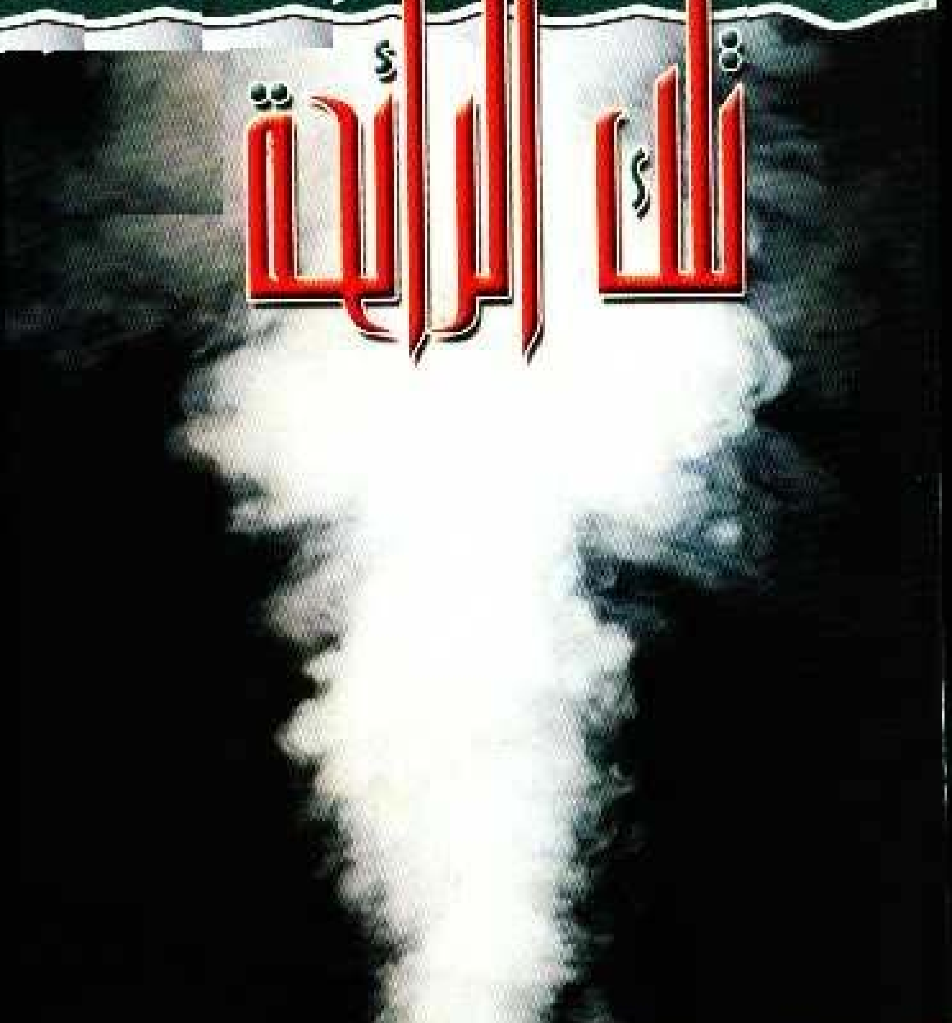
تلك الرائحة



صنع الله إبراهيم

على سبيل التقديم

سألني أستاذنا الكبير يحى حقى، عندما التقيت به مؤخراً في إحدى المناسبات، عما إذا كنت أذكر النقد الذى وجهه إلى روايتى الأولى "تلك الرائحة" عقب نشرها أول مرة فى فبراير 1966. وعندما أجبت بالإيجاب، سألنى عن رأيى الآن، بعد مرور قرابة العقدين، فى نقده، وفى روايتى عموماً.

فى تلك اللحظة كنت قد أوشكت أن أنسى كثيراً من تفاصيل الرواية. فقد مرت سنوات طويلة منذ قرأتها لآخر مرة. فليس من عادتى أن أعود إلى ما سبقت لى كتابته. فمثل هذه القراءة تثير مللى، إن لم تكن مصدراً للشعور بالإحباط.

أما النقد الذى وجهه الأستاذ يحى حقى للرواية، فلم أنسه أبداً!

كنت قد دفعت بالمخطوطة إلى مطبعة بدائية صغيرة فى حى الظاهر، فى فترة نادرة من تاريخ مصر الحديث، ألغيت فيها الأحكام العرفية. ولم يعد الكتاب يتطلب موافقة الرقابة قبل دخول المطبعة. رسمياً على الأقل! فقد احتفظ الرقيب بمكتبه ووظيفته كما كان الأمر فى السابق. وكل ما حدث من تغيير هو أن مكتبه أصبح بلا لافتة. وأن مصادرة الكتب لم تعد تتم قبل الطبع وإنما بعده.

الكتاب: تلك الرائحة

وقصص أخرى

المؤلف: صنع الله إبراهيم

الطبعة : الثالثة

تصميم الغلاف: شهاب الدين حسنى

الناشر: دار الهدى للنشر والتوزيع

الطباعة: القبس للطباعة وفصل الألوان

رقـــم الإيداع: 2003/18829

الترقيم الدولى: 9-59-5822-977

دار الهدى للنشر والتوزيع

المنيا ـ 5 ميدان الساعة

ت *0127899112 - 086/377034*

فاكس *086/377034*

صنع الله إبراهيم

تلك الرائحة

وقصص أخرى

دار الهدى للنشر والتوزيع

مقدمة الطبعة الثالثة

صدرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة سنة 1986 بالقاهرة والدار البيضاء وتلتها الطبعة الثانية بالقاهرة سنة 1993. وتضم هاتين الطبعتين، كما هو شأن الطبعة الحالية، النص الكامل لرواية "تلك الرائحة".

وكانت طبعتها الأولى قد صدرت – وصودرت – في القاهرة منذ سبع وثلاثين سنة، سنة 1966. وتلتها طبعة غير كاملة في 1969 في القاهرة وأخرى غير كاملة أيضاً في مجلة "شعر" البيروتية ثم أعيد نشر الطبعة الناقصة سنة 1971 في القاهرة ولم تنشر الطبعة الكاملة إلا سنة 1986 في الخرطوم. وفي نفس السنة نشرت كاملة أيضاً في القاهرة والدار البيضاء، في مجلد يضم القصص القصيرة.

وقد سبق أن أشرت في تقديم تلك الطبعة إلى عزوفي عن قراءة نصوصي السابقة. وهو ما أفعله مرغماً عند مراجعة طبعاتها الجديدة. هكذا وجدتني مضطراً إلى قراءة هذه المجموعة من جديد. وأثارت هذه القراءة شجون عدة تتعلق برحلتي

الطويلة فى الكتابة والحياة كما واجهتنى مرة أخرى بأخطائى اللغوية التى لم أكن أعبأ بها فى مستهل عملى ثم حرصت عل تلافيها بعد ذلك وما زلت أحاول!

والواقع أن الفترة التى بدأت فيها الكتابة كانت تتميز بإهمال عام من الكتاب لقواعد اللغة والترقيم التى اعتبروها - وخاصة فى الكتابات الصحفية - شيئاً ثانوياً. ولعبت طرق تدريس اللغة دوراً هاماً فى ذلك إذ اعتمدت الحفظ أساساً لها ولم تعبأ بمخاطبة عقول التلاميذ من خلال بسط "منطق" القواعد والتخلص من متحجراتها. وقد نجحت المدرسة فى إثارة نفورى من القواعد وأقامت حاجزاً نفسياً منيعاً بينى وبينها.

والقارئ لمقدمة "يوسف إدريس" التى حرصت على نشرها كما هى سيلحظ على الفور عدم مبالاته بقواعد النحو والصرف. واذكر أنى استفسرت من أحد الكتاب الصحفيين عن رأيه فى لغة إحدى قصصى الأولى - "الثعبان" - من ناحية القواعد النحوية، فأشاح بيده فى لا مبالاة قائلاً إنها مسألة تافهة يمكن علاجها "بواحد أزهرى مقابل شلن!".

لكن الأمر فى "تلك الرائحة" كان أكبر من مجرد النفور من القواعد والاستهتار بها فقد كان - كما أشار يوسف إدريس فى مقدمته - تعبيراً عن حالة التمرد التى سيطرت على العمل كله. وقد تغيرت نظرتى للأمر مع الزمن بفعل عوامل عدة منها بروز كتاب مثل "أدوار الخرائط" جعلوا من اللغة أساساً لعملهم. وتواكب ذلك مع ازدياد الاهتمام العام بسلامة اللغة نتيجة التقارب مع مراكز تحرص عليها مثل دمشق وبغداد ونتيجة أيضاً لانتقال " المركز الصحفى" من القاهرة إلى بيروت ثم الخليج، وربما أيضاً كرد فعل للهجوم الاستعمارى الضارى على المنطقة وثقافتها.

* * *

أثارت القراءة الراهنة لهذا المجموعة أيضاً فرصة ملاحظة بذور الظاهرة التى ميزت عملى وهى تلك الخاصة بالتناص أو تضمين الوثائق، والتفاعل مع أشكال أخرى من الإبداع الفنى. ففى "تلك الرائحة" توجد وثيقة فريدة هى الترجمة العربية لقصيدة كتبها بالإنجليزية المرحوم "شهدى عطية" (1913-1960)، قبل شهور من اعتقاله الأخير سنة 1959 الذى فقد حياته خلاله تحت وطأة التعذيب. وما زلت أحتفظ بأصل القصيدة بخط يده.

وذكرتنى القصص القصيرة أيضاً بالتأثيرات التى تعرضت لها فى بداية عملى. ولا شك أن القارئ المدقق سيلمس أثر رواية "الطاعون" لكامى فى قصة "الثعبان"، وأثر أسلوب "جورج سيمنون" المبهر ببساطته وسخريته الخفية فى قصة "ثلاثة أسرة"، و"هيمنجواى" فى قصص الطفولة. وأظن أن استخدامى لتقنية "الفلاش باك" فى "تلك الرائحة"، بلغة شاعرية تعارض لغة السرد الرئيسى، قد جرى بتأثر من رواية "ثلوج كليمنجارو"، وقد كان تأثيراً لا واعياً، إذ كنت من الغرور والاعتزاز بالنفس لأربأ بنفسى عن أى تقليد متقصد لكاتب آخر.

* * *

استدعت القراءة الراهنة أيضاً المشاكل التى جلبتها لى "تلك الرائحة" والتى رويت طرفاً منها فى تقديم الطبعة السابقة.

ولكن المشكلة التى مازالت تلاحقنى، ونتيجة أيضاً لأعمالى الأخرى، هى ميل القراء إلى اعتبار ما أكتبه واقعاً مؤكداً حدث لى. السبب فى ذلك بالطبع هو أنى أفضل استخدام ضمير المتكلم لما يسبب لى من راحة (ولأنى أيضاً أميل إلى قراءة الروايات التى تستخدمه) وأنى أستعين ببعض المواقف والخبرات التى مررت بها بالفعل، كما أن أغلب أعمالى تشير عادة إلى شخصيات وأحداث حقيقية. لكن ما

أكتبه لا يمكن اعتباره من قبيل السيرة الذاتية وبعبارة أخرى، فإذا كنت أستعين ببعض الخبرات الشخصية فإنها تتعرض لكثير من التحريف والتغير طبقاً لأهداف العمل. وقد جلب لى سوء الفهم هذا كثيراً من المشاكل والمواقف المحرجة. فغالباً ما يسألنى أحد القراء عما إذا كنت أنا شخصياً "شرف" الذى أغتصب فى السجن، وعن مصير البنت الروسية التى نمت معها فى أسوان. وقطع البعض بأن "ليا" بطلة "بيروت بيروت" هى فلانة، وأن "ذات" هى زوجتى أو أختى. ووصلت المسألة إلى ذروة الخطر فى حالة "وردة" التى تدور أحداثها فى سلطنة عُمان. فقد أتصل بى أحد مواطنيها محتداً ومهدداً قائلاً بالحرف: "كيف أسمح لنفسى أن افضح شرف "حرمة"؟ وهددنى بعواقب وخيمة إن لم أصحح الأمر. وعبثاً حاولت أن أبين له أننى مؤلف. وأن شخصيات الرواية بما فيهم الراوية ذاته لا وجود لها فى الحقيقة حتى لو تشابهت مع شخصيات واقعية، إلا فى حالات محدودة تجرى الإشارة إليها.

● ● ●

جلبت لى "تلك الرائحة" أيضاً مشاكل عائلية عديدة، ففيها يتحدث الراوية عن أخ وأخت وعم وأقارب سارداً تفاصيل حميمة عنهم، من شأن بعضها أن يصدم القارئ. لم يثر ذلك شيئاً عند نشرها فى المرة الأولى. فبعض أقاربى الذين تنطبق عليهم هذه الأوصاف كفوا عن ممارسة القراءة أو انتهت علاقتهم بفن الرواية عند "يوسف السباعى" و "إحسان عبد القدوس". ومن قرأها منهم صدفة – من مجايلى أو من الجيل الأكبر– لم يأخذ عملى على محمل الجد. وأعتبره فى الغالب نزوة من نزواتى التى اشتهرت بها وقادتنى فى السابق إلى السجن.

لكن الأحفاد كان لهم شأن آخر.

فعبر العقود نشأ جيل منهم وصل إلى الجامعة. ومن سوء حظى أن البعض منهم أغرم بالقراءة وقراءة الأدب بالذات. ثم أن العصر صار غير العصر. فما كان يبدو مقبولاً منذ ثلاثة عقود صار الآن رجساً من عمل الشيطان فى ظل الظلامية التى أسدلت أستارها على البلاد. ووقعت إحدى طبعات "تلك الرائحة" فى أيدى بعضهم فحملوها إلى الآباء والأجداد متسائلين وربما ساخطين.

وجاء اليوم الذى توفيت فيه إحدى قريباتى. علمت بالخبر فى الصباح وبدأت استعد للقيام بواجب العزاء. وإذا بزوجتى تحمل إلىَّ النعى المنشور فى جريدة الأهرام قائلة أنه لا يوجد ما يدعونى للخروج. وعرفت السبب عندما قرأت النعى الذى يضم أسماء الأقارب إذ وجدت مكان أسمى فارغاً مما يوحى بأن أحدا تذكر بعد إعداده للنشر ما "ارتكبته من جرائم"، وتمكن من إزالة أسمى فى اللحظة الأخيرة!!

ربما أمكن اعتبار كل ذلك بعضاً من متاعب المهنة الضرورية. وربما أمكن اعتبارها مؤشراً على نجاحى فى إقناع القارئ بالأكذوبة التى هى الرواية. لكنى ما زلت أتمنى أن يفصل القارئ بين شخصى والراوية، فهو كاذب كبير، حتى لو صدق!!

ص. إ

أكتوبر 2003

على سبيل التقديم

سألني أستاذنا الكبير يحى حقى، عندما التقيت به مؤخراً في إحدى المناسبات، عما إذا كنت أذكر النقد الذى وجهه إلى روايتى الأولى "تلك الرائحة" عقب نشرها أول مرة فى فبراير 1966. وعندما أجبت بالإيجاب، سألنى عن رأيي الآن، بعد مرور قرابة العقدين، فى نقده، وفي روايتى عموماً.

فى تلك اللحظة كنت قد أوشكت أن أنسى كثيراً من تفاصيل الرواية. فقد مرت سنوات طويلة منذ قرأتها لآخر مرة. فليس من عادتى أن أعود إلى ما سبقت لى كتابته. فمثل هذه القراءة تثير مللى، إن لم تكن مصدراً للشعور بالإحباط.

أما النقد الذى وجهه الأستاذ يحى حقى للرواية، فلم أنسه أبداً!

كنت قد دفعت بالمخطوطة إلى مطبعة بدائية صغيرة فى حى الظاهر، فى فترة نادرة من تاريخ مصر الحديث، ألغيت فيها الأحكام العرفية. ولم يعد الكتاب يتطلب موافقة الرقابة قبل دخول المطبعة. رسمياً على الأقل! فقد احتفظ الرقيب بمكتبه ووظيفته كما كان الأمر فى السابق. وكل ما حدث من تغيير هو أن مكتبه أصبح بلا لافتة. وأن مصادرة الكتب لم تعد تتم قبل الطبع وإنما بعده.

وهذا ما حدث مع كتابى. فلم تكد طباعته تنتهى حتى صدر الأمر بمصادرته. ولا أذكر إذا كنت قد استدعيت إلى مكتب رئيس الرقابة أو أنى ذهبت بنفسى شاكياً. المهم أنى قابلت المرحوم طلعت خالد، أحد معاونى عبد القادر حاتم المخلصين، وكان قد جمع لديه بعض كبار موظفى مصلحة الاستعلامات ليتسلوا بالفرجة علىَّ. وبسط أمامه نسخة من الرواية المصادرة، وقد ظهر أثر القلم الأحمر على هوامش أغلب صفحاتها. ثم سألنى باستهزاء: لماذا رفض البطل أن ينام مع المومس التى أحضرها صديقه ... هل هو "مرخى"؟

لم أعن كثيراً بمجادلته. وقد كنت تمكنت من استخلاص عدد من النسخ المصادرة، فقمت بتوزيعها على أصدقائى ومعارفى من الكتاب والصحفيين. وحاولت أن أوسط البعض منهم من ذوى النفوذ فى الإفراج عن الرواية. فذهبت مع المرحوم الأستاذ زكى مراد إلى الأستاذ أحمد حمروش، الذى كان يرأس تحرير مجلة "روزاليوسف" فى ذلك الوقت. ورحب الرجل بى بحرارة، وأرانى بروفة العدد الجديد من المجلة وبه تعليق صغير له عن الرواية تحت عنوان "لغة العصر". وعندما أبلغته بنبأ المصادرة ظهرت عليه المباغتة، ورفع سماعة التليفون واتصل بقريبه الأستاذ حمدى حافظ فى مصلحة الاستعلامات، فاستمع إليه برهة، ودون أن يعيد السماعة إلى مكانها اتصل بمطبعة المجلة وطلب شطب مقاله عن الرواية.

لكن أغلب الكتاب والصحفيين لم يصلهم نبأ المصادرة فى الوقت المناسب، فظهرت تعليقات عدة فى الصحف والمجلات، بينما كان الكتاب يرقد فى مخازن وزارة الداخلية. وكان الأستاذ يحيى حقى من الذين أهديتهم إحدى النسخ. وكنت قد تعرفت إليه قبل شهر، عقب خروجى من السجن فى منتصف 1964. فذهبت إليه فى مجلة "المجلة" التى كان يرأس تحريرها، فاتحاً أبوابها أمام كافة الكتاب والجدد منهم بوجه خاص، تاركاً لهم المكتب الخشبى الثمين الذى يتصدر غرفته، مكتفياً بمقعد جلدى مريح إلى جانبه. وفى أول لقاء معه حملت إليه عرضاً لأحدث كتب الناقد الإنجليزى ستيفن سبندر. وجلست أقرأ

المقال عليه وهو ينصت باهتمام، ويدرسنى بعينيه الذكيتين، مصححاً لى فى رفق ما ارتكبته من أخطاء فادحة فى النطق. وعندما فرغت من القراءة أعلن قبوله للمقال. وكان أول شئ ينشر لى بعد خروجى من السجن. وحصلت من ورائه على عشرة جنيهات كاملة تكلفت بنفقاتى لمدة شهر.

ذهبت إليه بنسخة من "تلك الرائحة"، فتناولها منى بحفاوة بالغة وبعد أن تبين العنوان قال مجاملاً، إن الغرفة أوشكت أن تعبق بالعبير الزكى الذى يفوح منها!

ولم تمض أيام حتى صحح الأستاذ الكبير غلطته بمقال عنيف فى عموده الأسبوعى بجريدة "المساء" قال فيه:

"لازلت أتحسر على هذه الرواية القصيرة التى ذاع صيتها أخيراً فى الأوساط الأدبية، وكانت جديرة بأن تعد من خيرة إنتاجنا لولا أن مؤلفها زل بحماقة وانحطاط فى الذوق، فلم يكتف بأن يقدم إلينا البطل وهو منشغل بجلد عميرة (لو اقتصر الأمر على هذا لهان)، لكنه مضى فوصف لنا أيضا عودته لمكانه بعد يوم ورؤيته لأثر المنى الملقى على الأرض. تقززت نفسى من هذا الوصف الفزيولوجى تقززاً شديداً لم يبق لى ذرة من القدرة على تذوق القصة رغم براعتها. إننى لا أهاجم أخلاقياتها، بل غلظة إحساسها وفجاجته وعاميته. هذا هو القبح الذى ينبغى محاشاته، وتجنيب القارئ تجرع قبحه".

كان كاتبنا الكبير يسألنى إذن عن موقفى مما أسماه فى ذلك المقال بالتعبير الفزيولوجى. لكن ذهنى انصرف أثناء حديثى معه إلى تجربتى كلها. فأجبته بأنى أشعر كما لو أنى بدأت الآن فقط فى تعلم الكتابة. فكل كتاب جديد لى يكشف لى عن جانب كنت أجهله من هذا الفن، يزيد من إدراكى لحدود إمكانياتى ولنقاط الضعف والعجز لدى، كما يضاعف من تقديرى لعتاولة الكتاب الذين يقتحمون الورق مسلحين بأدوات عدة، قبضوا على ناصيتها بإحكام شديد. ولم يكن هذا شعورى عندما بدأت أولى خطواتى، وهو ما أعتبره أمراً طبيعياً.

كنت – عندما كتبت "تلك الرائحة" – خارجاً لتوى من السجن، خاضعاً للرقابة القضائية التى تستلزم التواجد فى المنزل من غروب الشمس حتى شروقها. وكنت أقضى بقية اليوم فى التعرف على عالم ابتعدت عنه أكثر من خمس سنوات. وما أن آوى إلى حجرتى، حتى أجد نفسى مدفوعاً لأن أسجل بلمسات سريعة ما مر بى من أحداث ومشاهدات كانت تهزنى بعنف وتبدو لى عجائبية. ثم أزيح هذه اليوميات جانباً وأعود إلى رواية، بدأتها فى السجن، عن عالم الطفولة. وكنت قد خططت لها أن تتألف من عدة قصص مستقلة، تجمع بينها الشخصيات الرئيسية والموضوع العام. وكتبت منها عدة فصول نجحت فى تهريبها إلى خارج السجن بفضل الصديق حسين عبد ربه، الذى حملها معه عند الإفراج عنه. (تضم المجموعة الحالية اثنتين من هذه القصص هما "أرسين لوبين" و"أغانى المساء").

كنت أعود إلى الرواية فأجدنى عازفاً عن المضى فى كتابتها. فقد ضاع الوهج الذى لازم العمل فيها بين جدران السجن، واستولى الواقع الجديد على كل مشاعرى.

ومن جديد برز السؤال المعهود: ماذا أكتب وكيف أكتب؟

أقول من جديد لأنه طالما لاحقنى فى السجن، منذ اللحظة التى قررت فيها أن أهب حياتى لهذا الفن. وأحياناً ما كنت أضرب عرض الحائط بالشق الأول من السؤال، متحدياً فى سذاجة الشباب وحماسه، الصياغة التى ألهبت خيالنا فى الخمسينات للعلاقة بين صورة العمل الفنى ومضمونه، والتى بسطها الأستاذان محمود العالم وعبد العظيم أنيس فى مقالاتهما الشهيرة. فقد كان التمرد هو طابع الفترة.

كانت السنوات الأولى من الستينات بالغة الخصب، فى السياسة والفن والحياة. كانت فترة الصعود لطبقة متوسطة فتية فى مصر وبلدان العالم الثالث أمكنها أن تكيل ضربات قاصمة للاستعمار القديم المتهاوى، مستفيدة من توازن عالمى ملائم للقوى، وأن تصوغ حلماً للعدالة الاجتماعية لم يقدر لها أن تتمكن من تحقيقه. وكانت الحركة الاشتراكية قد

استيقظت على مساوئ عبادة الفرد وبدا الطريق أمامها ممهداً لاستخلاص النتائج الضرورية من ذلك. وكان الإنسان قد صعد إلى القمر، ودخل السلوك الجنسى إلى المعمل لتتكشف أكثر الحقائق إثارة، من قبيل عدد مرات الأورجازم لدى المرأة الطبيعية والتى يمكن أن تصل إلى خمسين أورجازما فى الليلة الواحدة مقابل اثنين أو ثلاثة فى المتوسط للذكر المسكين.

ومن وراء أسوار سجن الواحات الخارجة كنا – أنا وأصدقائى كمال القلش ورؤوف مسعد وعبد الحكيم قاسم – نتابع فى حماس الشعراء السوفييت – الشابين يوفتوشنكو وفوزنيينسكى والعجوز تفاردوفسكى – وهم يفجرون الأبنية العتيقة، بقدر ما كنا نتابع تجارب الكتابة التلقائية، وفنون الضوء والحركة فى أمريكا، وموجة "الرواية الجديدة" فى فرنسا. وكانت المجلات القاهرية تحفل بالإشارة إلى شتى التجارب الأدبية الجديدة فى العالم. وراحت المعارضة اليمينية المقنعة للنظام الناصرى – وهى التى كانت تسيطر بالفعل على كافة منافذ النشر والإعلام فى البلاد – تروج فى دهاء لأعمال بيكيت ويونسكو ودورينمات.

كان التمرد إذن هو وقود المرحلة، والتجربة هو شعارها. وأعطى نجيب محفوظ ظهره لكتابته البلزاكية، ليخوض فى مغامرات مثيرة، قفز فيها بالفن الروائى العربى قرناً بأكمله. وبرزت أسماء جديدة مثل إدوار الخراط وغالب هلسا وبهاء طاهر وسليمان فياض وإبراهيم أصلان ويحى الطاهر عبد الله وغيرهم. وخيل إلىّ أنى وجدت الطريق عندما وقعت على هيمنجواى من خلال كتابين وجدا طريقهما إلى سجن الواحات الخارجة: الأول لكارلوس بيكر، والثانى يضم عدة دراسات أهمها واحدة لناقد سوفيتى قديم، غاب عنى اسمه. عنيت بتحليل أدوات الكاتب الأمريكى الكبير. وقد آمنت على الفور بهذه الأدوات – ومازلت أعتمد بعضها – وأهمها الاقتصاد والتعبير المشكوم. وبدا "لجبل الثلج العائم" بريق خاص فى مواجهة الترهل التقليدى فى أسلوب التعبير العربى. وتحت تأثير هيمنجواى

بدأت أعمل فى رواية الطفولة التى لم يقدر لها أن تكتمل.

فسرعان ما كنت فى الحجرة المفروشة التى استأجرتها فى حى "مصر الجديدة" بعد الإفراج عنى، أقلب مسوداتها فى ملالة وأنا أتساءل عن جدوى كتابة لا تتعرض للصراع الضارى مع الاستعمار، لمحاولات بناء الاشتراكية، وللتناقضات الملتبسة بكل ذلك: الرعب والتعذيب والسجن والموت والشجن الشخصى؟

وذات ليلة لن أنساها، ألقيت نظرة على اليوميات التلغرافية التى كنت أسجلها كل ليلة بعد انصراف الشرطى. وكان قد تجمع منها عدد قليل ربما ستة عشر يوماً على ما أذكر ... قرأتها كلها مرة واحدة، فإذا بى أرتجف من الانفعال.

كان ثمة تيار خفى فى ذلك الأسلوب التلغرافى الذى لا يتوقف ليتمعن، ولا يعنى بانتقاء المترادفات أو سلامة اللغة أو مداراة القبح الذى يصدم النفوس الحساسة. كان ثمة "جمال" فى جملة ركيكة مثل "وقال الكاتب إن موبسان قال إن الفنان يجب أن يخلق عالماً أكثر جمالاً وبساطة من عالمنا". وكان ثمة جمال فى فعل قبيح من قبيل إطلاق غازات المعدة فى صالون برجوازى.

ألا يتطلب الأمر قليلاً من القبح للتعبير عن القبح المتمثل فى سلوك فزيولوجى من قبيل ضرب شخص أعزل حتى الموت ووضع منفاخ فى شرجه، وسلك كهربائى فى فتحته التناسلية؟ وكل ذلك لأنه عبر عن رأى مخالف أو دافع عن حريته أو هويته الوطنية؟

ولماذا يتعين علينا عندما نكتب ألا نتحدث إلا عن جمال الزهور وروعة عبقها، بينما الخراء يملأ الشوارع ومياه الصرف الملوثة تغطى الأرض، والجميع يشمون الرائحة النتنة ويشتكون منها؟

أو أن نصور على الورق كائنات أوشكت أن تختفى فتحاتها التناسلية، كى لا نخدش حياءً كاذباً لدى قراء يعرفون عن أمور الجنس أكثر مما يعرف السيد الكاتب؟

شعرت وأنا أقرأ يومياتى الوجيزة بأنى أمام مادة خام لعمل فنى، لا يتطلب منى بعد غير جهد التشكيل والصقل. وشعرت أيضاً أنى قد وقعت أخيراً على صوتى الخاص.

كنت قد وجدت عملاً فى حانوت لبيع الكتب الأجنبية "تخرج" منه فيما بعد كل من رؤوف مسعد وعبد الحكيم قاسم. وكان عملى يحتم على التواجد فى الحانوت طول اليوم. وبهذا كانت الفرصة الوحيدة أمامى للكتابة الجادة هى يوم العطلة. ولازلت أذكر يوم كتبت الصفحة الأولى من "تلك الرائحة" فى مقهى بحديقة الأزبكية ذات صباح. ولم ألبث أن أدركت عبث هذا الوضع. فتركت العمل. وأتاح لى أحد الأصدقاء وهو الطبيب جمال صابر جبرة مكاناً يأوينى فى مسكن مهجور له فى مصر الجديدة امتلأ بالكتب القديمة. ووسط مؤلفات العلامة الأثرى سامى جبرة، ومجلدات شهداء القديسين، انقطعت للعمل فى روايتى الأولى، طوال ثلاثة شهور، شد من أزرى خلالها التأييد المعنوى من الصديقين العتيدين رؤوف مسعد وكمال القلش.

قررت أن أحافظ على النفس اللاهث الذى ميز اليوميات، بعد أن رتبت محتوياتها بطريقة خاصة، وأضأت بعض جوانبها بهوامش مستفيضة جمعتها فى نهاية النص. وأطلقت على النص اسم "الرائحة النتنة فى أنفى".

وكان الدكتور يوسف إدريس – الذى تربطنى به علاقة قديمة منذ منتصف الخمسينات – هو الذى اعترض على فكرة الهوامش، واعتبرها مغالاة فى التجديد. وأقنعنى بنقلها إلى داخل النص. كما اعترض على العنوان الذى اخترته للرواية. وفى العيادة التى افتتحها فجأة فى ميدان الجيزة لممارسة العلاج النفسى، توصلنا معاً إلى اسم "تلك الرائحة". وكان كريماً معى بالمقدمة.

وأخيراً دفعت بالرواية إلى المطبعة بعد أن قدمت لناشرها عشرين جنيهاً. وأهدانى الرسام مصطفى حسين تصميماً للغلاف. وصدرنا الرواية بمقدمة يوسف إدريس،

وبكلمة موجزة على الغلاف، أشبه بالمانفستو، من توقيع كمال القلش ورؤوف مسعد وعبد الحكيم قاسم هذا نصها:

"إذا لم تعجبك هذه الرواية التى بين يديك، فالذنب ليس ذنبنا، إنما العيب فى الجو الثقافى والفنى الذى نعيش فيه، والذى سادته طوال الأعوام الماضية الأعمال التقليدية والأشياء الساذجة السطحية.

ومن أجل كسر المناخ الفنى السائد الذى تجمد، نصمم على هذا النوع من الكتابة الصادقة المؤلمة أحياناً.

فى هذا الإطار نقدم هذه الرواية للكاتب الجديد "صنع الله إبراهيم". وبعدها سنقدم مسرحية "السود" لنبيل بدران، وقصص قصيرة لكمال القلش وأحمد هاشم الشريف وعبد الحكيم قاسم، ومسرحيات لرؤوف مسعد، وقصائد لمحمد حمام.

وهذه الأسماء التى لم تتعودها ستقدم إليك فناً لم تتعوده أيضاً. فناً يعانى محاولة التعبير عن روح عصر وتجربة جيل. عصر اختفت فيه المسافات والحدود، وانهارت فيه الأوهام، ونفذ فيه الإنسان إلى حقيقة الوجود. وجيل ولد فى ظل الملكية والإقطاع وخرج فى المظاهرات التى هتفت بسقوط الملك والإنجليز، ثم تفتح وجدانه على ثورة يوليو وعاشها بالوعى والفعل، وشهد انهيار الملكية والرأسمالية وقيام الاشتراكية، كل هذه العمليات الهائلة فى سنوات قليلة. لهذا جاءت تجربته غنية عميقة مليئة بكافة التناقضات والأزمات التى زادته معرفة ووعياً بوجوده، وتطلبت فى التعبير كل جرأة وحدة حتى تتجسد إبداعاً خلاقاً.

هذا هو الطريق الذى اخترناه".

ولا شك أن القارئ سيبتسم معى – اليوم – لهذه النبرة الحماسية المليئة بثقة لا حد لها (ربما عكست انعدام الثقة تماماً) والكلمات الفخمة من قبيل "حقيقة الوجود"،

والأحكام التى ثبت خطاها مثل "قيام الاشتراكية". لكنها سذاجة البدايات، أو لعلها دفاع مستبق عن النفس.

فما أصعب اللحظات التى مرت بى منذ صدرت الرواية. ففى ذلك الوقت كانت الكتابات الشائعة فى الصحف والمجلات المصرية تعزف على النغمة المعهودة فيما عرف بالأدب "الواقعى الاشتراكى": عدم إغفال الصورة الكلية، والإنجازات التى تحققت، إلخ. (وهى دعوى يتمسح بها الآن أكثر الكتاب تخلفا ورجعية، مما يلقى ضوءاً كاشفاً على قيمة الدعوى وجدواها).

وكانت الأمة العربية – ومصر فى الطليعة – فى مواجهة ساخنة مع الإمبريالية الأمريكية وربيبتها الصهيونية فضلاً عن الرجعية العربية. وكان من الطبيعى أن يلاحقنى تساؤل عما إذا كنت لا أضر بلدى بهذا العمل فى هذه الظروف.

وبالإضافة إلى ذلك كان سيف الاعتقال مسلطاً طول الوقت.

ووجد الكثيرون فى الكتاب مادة للتفكه والسخرية. وتلقفته بعض العناصر لتستغله فى خدمة مصالحها. فحمله عبد القادر حاتم إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ليشهده على ما وصل إليه "الشيوعيون" من تبذل وانحلال. وتوصل "المؤتمر الإسلامى" إلى نتيجة مماثلة. وآلمنى أن تستغل "مغامرتى" للمساس بقوة سياسية أحترم كفاحها وتضحياتها على مدى عدة عقود.

ولاحقنى الشعور نفسه بعد ذلك عندما اضطررت لنشرها فى بيروت عام 1968، فى مجلة "شعر" التى كان يصدرها يوسف الخال عن جريدة النهار، فكلها جهات لا تعلو على الشبهات.

لكنى لم أندم أبداً على أنى كتبت هذه الرواية ونشرتها فى تلك الظروف. ولا ندمت على النهج الذى اتخذته فى التعبير، ولا فكرت فى التراجع عنه. حقاً كثيراً ما

خالجنى الشعور بأنى قد أجهضت عملاً كبيراً. إلا أنى لا ألبث أن أقنع بالقول أن تلك كانت حدود إمكانياتى حينذاك.

أما التوجه ذاته، الإنصات للصوت الداخلى، والاغتراف من صلب الواقع الحقيقى، دون مراعاة للمشاعر البرجوازية الحساسة، أو لبعض الاعتبارات المرحلية، فمازلت اعتمده أساساً لعملى.

لم تفلح المصادرة فى القضاء على الكتاب، فقد وجد. وهو درس يجب أن تعيه جيداً أجهزة الدولة فى البلدان العربية.

وفى سنة 1969، أثناء وجودى فى الخارج، أصدرت دار النشر (التى تغير اسمها من "مكتب يوليو" إلى "دار الثقافة الجديدة")، طبعة ثانية من الرواية بعد أن انتزعت منها – ودون إذن منى – كل ما تصورت أنه قد يثير غضب الرقيب. ولا أستبعد أن تكون قد لجأت إلى ذلك النوع من الرقباء الذى أفرزته الحياة فى ذلك الحين، وهو رقيب "قطاع خاص" يقدم خبرته فى الجهاز الرقابى لمن يشاء من المؤلفين أو الناشرين. ووفقاً لاتفاق خاص بين الناشر وناشر آخر وهو "كتابات معاصرة"، أعيد إصدار نفس الطبعة فى القاهرة سنة 1971.

وتعتبر الطبعة الحالية أول طبعة كاملة منذ مصادرة الطبعة الأولى (فلم تسلم طبعة مجلة شعر من المقص المعهود الذى اقتطع كل ما من شأنه أن يؤذى المشاعر الحساسة لقرائها). ومن الطبيعى أنى قمت بتصحيح الأخطاء النحوية واللغوية التى وردت فى الطبعة الأصلية بالإضافة إلى حالات السهو، من قبيل الإشارة إلى طفل بصيغة المذكر ثم الإشارة إلى نفس الطفل فى مكان آخر بصيغة المؤنث. كما صححت مصدر الاقتباس الذى صدرت به الرواية لجيمس جويس. ففى الطبعة الأصلية ذكرت أنه عن رواية "بوليسيز". وكنت قد طالعت العبارة المقتبسة فى مقال نقدى بالملحق الأدبى للتايمس اللندنية. ونسبتها – خطأ فيما يبدو – إلى الرواية الشهيرة. وأثناء إعداد الترجمة الإنجليزية، التى صدرت عن دار

هاينمان اللندنية فى 1971، بحث المترجم دنيس جونسون ديفيز طويلاً عن أصل العبارة فى رواية "يوليسيز" دون أن يعثر لها على أثر. وبالالتجاء إلى الخبراء بأعمال جويس أمكن الاستدلال على أصل العبارة فى رواية "صورة الفنان في شبابه".

وكان دنيس جونسون ديفيز هو المسئول عن تعديل جوهرى بهذه الطبعة. فقد اشتكت دار النشر الإنجليزية من قلة عدد صفحات الكتاب. وكنت قد أضفت إلى "تلك الرائحة" خمساً من القصص القصيرة. لكن دنيس لم يرض عن إحدى هذه القصص. وهى من قصص الطفولة وبعنوان "الشيكولاتة". وجعل يلح علىَّ أن أكتب واحدة جديدة، لكنى لم أتمكن. عندئذ فكرت فى تضمين الموقف الأساسى لقصة "الشيكولاتة" بالرواية. وهذا ما تم بالفعل، وكسبت دار النشر أقل من صفحتين جديدتين. وعند إعداد هذه الطبعة رأيت من المناسب أن أفعل المثل، فأضفت إلى النص الأصلى الفقرة الواردة بين أقواس قرب نهاية الرواية.

صنع الله إبراهيم

القاهرة 1986

«أنا نتاج هذا الجنس وهذه الحياة ....

ولسوف أعبر عن نفسي كما أنا...»

جيمس جويس: صورة الفنان في شبابه

مقدمة يوسف إدريس للطبعة الأولى

ليست مجرد قصة

أعترف بأنى شديد الضعف تجاه المواهب، وليس أسهل من الكتابة وسيلة تخدعك عن الموهبة، والكتابة موهبة كل إنسان، مثلها مثل الكلام، ولكن قليلون أولئك الذين باستطاعتهم أن يخلقوا من الكلام فناً، وتمييز الذهب من القشرة فى حاجة إلى صائغ، والمواهب كالمعادن فى حاجة إلى ميتاليرجيست ليفند ويقيم، ولست هذا الصائغ أو أخصائى المعادن، ولكنى أحس بالموهبة مثل إحساسى بالخطر أو الأمل أو الضيق، ولقد عرفت صاحب هذا الكتاب منذ أكثر من عشر سنوات، دقيق الجسم، دقيق ملامح الوجه، أحياناً أحس به كالطائر الذى يضع منظاراً، ومنذ عرفت صنع الله وهو أصيل لم أشهده مرة متلبساً بخاطر ليس من صنعه أو بفكرة لم يشق فى تحصيلها، وأسماء كثيرة أطلقتها عليه، أول ما عرفته سميته داستايوفسكى أو كما تعودنا تسميته دوستيوفسكى فقد كان يكتب بطريقة منسابة فياضة تحس أو وراءها نبعاً لا ينضب، وكانت الشخصية المحببة إليه أيامها هى خليل بك وهو نموذج بشرى التقطته موهبة صنع الله كما يلتقط طائر النورس من طيرانه العالى ظهر السمكة وينقض عليها. وخلق صنع الله من خليل بك شخصية يمكن أن يكتب عنها عشرات

الكتب دون أن يفرغ محتواها، كان أيامها فى العشرينات. ولكن قصصه كانت تقترب من الأربعينيات الناضجة. كان متدفقاً غزيراً بحيث أنى أحس بالأسف الشديد كلما تذكرت موهبته فى ذلك الحين. إذا كان النبات فى حاجة إلى رعاية خاصة. والزهور النادرة فى حاجة إلى بيوت من زجاج وتكييف هواء، والحيوان أيضاً، فى المزارع الحديثة نرعاه وندقق فى اختيار طعامه، وتوفير الراحة له ليدر اللبن، ما بالك بأرقى ما وصلت إليه فى تطورها الحياة، كل أنواع الحياة، الإنسان الفنان. وصنع الله أيامها لم يكن يطمح فى رعاية أكثر من أن ينضح النشر بعض ما يعج به درج مكتبه، وعملاً. ولا شئ غير هذا. ولكننا بنفس الإسراف العبيط الذى نبعثر به الأشياء ما أكثر ما بعثرنا من المواهب. وهكذا كتب على دوستيوفسكى صنع الله إبراهيم أن لا يرى النور، وأن تضيع مسوداته وكتاباته وتهدر، وأن يتوقف عن الكتابة فترة طويلة، وخلال غيابه كنت دائم السؤال عنه خائفاً أن يعود الشاب ولا يعود الفنان. وفعلاً عاد الشاب وقابلته وسألته إن كان قد كتب، وفى خجل من نوع خاص أعطانى هذه الرواية القصيرة التى قرأتها، بل والتهمتها فى جلسة واحدة، جلسة كنت خلالها كثيراً ما أسخط على الكاتب وكثيراً ما افتقد صنع الله الأول وكثيراً ما أحس أنه يريد وكأنما بصبر أيوب أن يؤلم القارئ ويؤذيه. ولكنى حين انتهيت أحسست أنى لست فقط أمام فنان عاد ولكنى أمام موهبة جديدة، وكأنما ولدت فى الغيبة، والغريب أنه بالقدر الذى كانت تبدو فيه موهبته الأولى أكبر من سنه بكثير، تكاد تكون ضعف سنه، هذه المرة وجدت الشاب الذى أوشك على الثلاثين يكتب بروح ابن عشرين، دافئ التجربة طازج الإحساس، والحزن فى نفسه طبقات ولكنه حزن الصبا، الحزن الدافع إلى اللاحزن والأمل، وجدت العقل ذلك الذى كان يغلق على نفسه الطريق لا يريد أن يراه، وجدته هنا يرى أولاً وينفعل أولاً، ويقطر رؤاه وانفعالاته على الورق بلا أى محاولة لإخضاعها لفلسفة معينة أو نظريات، وجدته قد آمن هذه المرة بالإنسان كظاهرة أعظم من كل الظواهر وأصبحت أشجان

الإنسان الصغيرة أهم آلاف المرات من المعادلات مهما بدت رائعة الانضباط فوق الورق. وجدت الفنان الذى فيه قد ثار ثورتين، ثورة إلى الخارج، وثورة إلى داخل نفسه. يحطم قيوداً كثيرة كانت تجعله لا يصل إلا لسطح عقله ووجدانه وتمنعه أن يغوص فى أعماقه ويغامر ويستكشف، عشر مرات قد يخرج بيده خاوية، ولكنه بالتأكيد ذات مرة سيخرج بحقيقة قد تكفيه عمراً بأكمله. هنا أصبح صنع الله قصير الجمل حادها، قصير النفس، يلتقطه بسرعة ويخرجه ليدخر قواه كلها للغوص وللمغامرة والاكتشاف. هنا أصبح صنع الله مراً، ليست مرارة حاقدة، ولكنها مرارة من يريد أن يتخلص، ويتخلص قراؤه، من كل شعور بالمرارة، صريحاً فى أهدافه القصيرة، صريحاً إلى درجة اشمأزت نفسى فيها من بعض تعبيراته، ولكن مقابل صراحته القصيرة هذه هناك خبث فنى مخفى يخاطب، من وراء ظهر القارئ وعقله، والوجدان، أعمق طبقات الوجدان. هنا فى هذه الرواية القصيرة لخص لى صنع الله ليس فترة هامة من حياة بطل القصة، إنما فترة أهم من حياة جيل صنع الله، ذلك التلخيص الساحر المركز شديد المفعول. إنها ليست قصة، قل إنها صفعة أو صرخة أو آهة منبهة قوية تكاد تثير الهلع. لم يعد لدى الفنان وقتاً لينمق ويصوغ الأحاسيس ببراعة تستدر الإعجاب. إنه هنا يريد أن يستدر انفعالات أقوى من الإعجاب به ككاتب، أو الإعجاب بقصته كموضوع. إن البطل هنا ليس الرجل، وليس الشاب، وليست الأحداث أو العصر. البطل هنا هو إحساس عام طاغ لا اسم له – إلى الآن على الأقل – وحتى حين حاول صنع الله بعنوان القصة، "تلك الرائحة" أن يسميه، هو فيما أعتقد قد فشل، بل إنى لأجد نفسى الآن فى حرج شديد وأنا أحاول أن أنتقى اسماً لهذا الإحساس العام الذى نحته وخلقه صنع الله وأدخله دائرة الفن والأدب، ليس الإحساس بالغربة أو الاشمئزاز أو الضياع أو الثورة أو افتقاد الحنان أو الوجود، إنه إحساس مختلف، من المجحف لصنع الله وهذا العمل أن أحاول أن أعطيه اسماً أو أثير مشكلة حوله، فإنى أريدكم معى، أن تقرأوا القصة.

وتخوضوا التجربة وتحسوه، ولتطلقوا عليه بعد هذا ما شئتم من أسماء.

إنى لشديد الاعتزاز بصنع الله الفنان، وسعيد حقيقة وأنا أحس أنه قد آن الأوان لتقرأه الحركة الفنية والأدبية فى كتاب كامل فى قصة من أجمل ما قرأت باللغة العربية خلال السنوات القليلة الماضية.

إن "تلك الرائحة" ليست مجرد قصة، ولكنها ثورة، وأولها ثورة فنان على نفسه، وهى ليست نهاية، ولكنها بداية أصيلة لموهبة أصيلة، بداية فيها كل ميزات البداية ولكنها تكاد تخلو من عيوب البدايات لأنها أيضاً موهبة ناضجة.

يوسف إدريس

1966

تلك الرائحة

قال الضابط: ما هو عنوانك؟ قلت: ليس لى عنوان. تطلع إلى فى دهشة: إلى أين إذن ستذهب أو أين تقيم؟ قلت: لا أعرف. ليس لى أحد. قال الضابط: لا أستطيع أن أتركك تذهب هكذا. قلت: لقد كنت أعيش بمفردى. قال: لا بد أن نعرف مكانك لنذهب إليك كل ليلة. ليذهب معك عسكرى. وهكذا خرجنا إلى الشارع أنا والعسكرى. وتلفت حولى فى فضول. هذه هى اللحظة التى كنت أحلم بها دائماً طوال السنوات الماضية. وفتشت فى داخلى عن شعور غير عادى، فرح أو بهجة أو انفعال ما، فلم أجد. الناس تسير وتتكلم وتتحرك بشكل طبيعى كأننى كنت معهم دائماً ولم يحدث شئ. وقال العسكرى: لنأخذ تاكسياً. وقلت فى نفسى إنه يريد أن يتنزه على حسابى. وذهبنا إلى بيت أخى. وقال لى أخى على السلم إنه مسافر ولا بد أن يغلق الشقة. ونزلنا وذهبنا إلى صديقى. وقال صديقى: أختى هنا ولا أستطيع أن أقبلك. وعدنا إلى الشارع. وبدأ العسكرى يتبرم. وبدت الشراسة فى عينيه. وقلت فى نفسى إنه يريد العشرة قروش. وقال لا يمكن أن نظل هكذا. بنا إلى القسم. وفى القسم كان هناك عسكرى آخر. وقال: أنت مشكلة ولا يمكن أن نتركك. جلست أمامه ووضعت حقيبتى

على الأرض وأشعلت سيجارة. وجاء الليل وقال إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً. ونادى على عسكرى ثالث وقال له ضعه فى الحجز. وقتدونى إلى حجرة مغلقة يقف عسكرى رابع ببابها. وفتشنى العسكرى وأخذ نقودى ووضعها فى جيبه. وأدخلنى حجرة واسعة تدور بجدرانها عارضة خشبية مرتفعة عن الأرض. وجلست على العارضة. وكان هناك رجال كثيرون. وفى كل لحظة كان الباب يُفتح ليدخل آخرون. وأحسست بوخز فى رقبتى. ومددت يدى إلى رقبتى فشعرت ببلل. ونظرت إلى يدى فوجدت بقعة دم كبيرة على أصبعى. وفى اللحظة التالية شاهدت عشرات من البق على ملابسى. ووقفت.ولأول مرة رأيت بقع الدم الكبيرة التى تلوث جدران الحجرة فى كل مكان. وضحك أحد الموجودين وقال لى: تعالى هنا. وكان هناك بعض الذين جلسوا على الأرض. وفرش أحدهم بطانية ممزقة على الأرض. ووجدت مكاناً صغيراً فى حافتها جلست فوقه وأسندت ذقنى إلى ركبتى. وقال لى صاحب البطانية: لماذا لا تنام؟ لكن لم يكن هناك مكان لجسدى. وقلت: أنا أفضل الجلوس هكذا. وسألنى آخر: مخدرات؟ قلت: لا. قال: سرقة؟ قلت: لا. قتل؟ لا. رشوة؟ لا. تزييف؟ لا. وسكت الرجل حائراً وجعل ينظر لى نظرة غريبة. وبدأت أرتجف من البرد فقمت أتمشى قليلاً. وعدت أجلس. وتعبت من جلستى فاتخذت وضعاً آخر. وأخرج أحدهم بطانية كان يطويها تحته وجعل يستعد للنوم. وأخذت أتسلى بتصيد البق الذى يجرى على الأرض وقتله. وأحنيت رأسى فجأة على صدرى. فلم أكن أريد منهم أن يروا وجهى. وكانوا قد بدأوا يستسلمون للنوم. وأمامى رقد عجوز على العارضة. وفتح العسكرى الباب ونادى عليه قائلاً: هناك من يسأل عنك. وعاد العجوز يحمل بطانية ووسادة وتمدد فوق العارضة وتغطى بالبطانية وأسند رأسه إلى الوسادة وسرعان ما نام وهو يتنفس بصوت عال ولم يعبأ بالبق. وبجواره جلس رجل يحدق فى وجهى وقد دس يديه فى جيبى معطفه المفتوح الذى كشف عن صدره العارى. فلم يكن يرتدى شيئاً تحت المعطف. وأطلق هذا الرجل فجأة عواءً غريباً

مروعاً ثم قام واقترب منى وهو يترنح. وضحك فى وجهى ثم جلس بجوارى، وتطلع أمامه فى ذهول، ثم عوى. وقام إليه شاب ضخم الجثة فضربه على وجهه. وقال المجنون وهو يرفع ساعده ليحمى وجهه: لا تضربنى. وانهالت ضربات الشاب عليه. وسمعت صوت عظامه تطقطق. وسقط فى مكانه وهو يلهث. وضحك الآخرون. وجذب صاحب البطانية البطانية فوقه وبسطها بيده على صبى ممتلئ ينام إلى جواره. ورأيت وجه الصبى قبل أن تغطيه البطانية. كانت له بشرة خمرية وشفتان ممتلئتان. وكان غارقاً فى النوم وقد ثنى ركبتيه. وأحاطه الرجل بساعده أسفل البطانية. وجعل يتحرك حتى التصق به. وراحت ذراعه تحت البطانية وهى تتحرك على جسد الصبى تنزع بنطالونه. والتصق ساقا الرجل بظهر الصبى. وبجوار الصبى جلس الشاب الضخم الذى ضرب المجنون. وكان يتابع ما يجرى أسفل البطانية ويرفع عينيه كل لحظة فتلتقيان بعينى. وهدأت الحركة أسفل البطانية بعد قليل. وهتز الغطاء وقام الصبى جالساً وهو يمسح عينيه ليفيق من النوم. وجعل يتطلع بين ساقيه. وغفوت قليلاً وأنا جالس ثم تنبهت. وام أر الشاب الضخم ثم لمحت ساقيه من تحت البطانية. كان ينام محتضناً الصبى. وقمت أتمشى. واهتزت البطانية. وجذبها الشاب من فوق الصبى والتف بها كلها. ورقد الصبى عارى الفخذين. وبدأ الظلام ينجلى. وراقبت نور الفجر وهو ينتشر. وفتحوا لنا أخيراً لنغتسل. وأخذوا الصبى لينظف الفناء. وأحضر الباقون طعاماً وأفطروا. وظهر الصبى عند الباب وسأل: ألم تتركوا لى شيئاً؟ وقال الشاب الضخم: لا. وجعل العسكرى ينادى أسماء. وسمعت اسمى. وحملت حقيبتى وخرجت. وعند عسكرى الأمس وجدت أختى. وسلمنى دفتراً صغيراً يحمل اسمى وصورتى. وخرجنا أنا وأختى إلى الشارع. وقالت: أتريد أن تشرب شيئاً؟ قلت: أريد أن أمشى. وأخذتنى إلى حجرة فى مصر الجديدة..وأخذت ملابس نظيفة ودخلت الحمام. وأغلقت الباب خلفى. وخلعت ملابسى ووقفت عارياً تحت الدش. ثم دعكت جسمى بالصابون وفتحت

الدش فوقى. ورفعت رأسى إلى أعلى وحدقت عيناى فى عيون الدش الصغيرة. وسالت منه المياه وأجبرتنى على أن أغمض عينى. وأحنيت رأسى وتابعت الصابون وهو ينحدر على جسمى مع المياه ثم يجرى على الأرض حتى البالوعة. ودعكت جسمى بالصابون مرة أخرى. ومن جديد تابعت مياه الدش وهى تأخذ الصابون وتجرى به حتى البالوعة. وأغمضت عينى ووقفت تحت الماء بلا حراك. ثم أغلقت الصنبور. وتناولت الفوطة وجففت بها جسمى فى بطء، ثم ارتديت ملابسى وغادرت الحمام. وأشعلت سيجارة. وقالت أختى: نذهب إلى السينما. وذهبنا. وكان فيلماً عن طيور يزداد حجمها وعددها حتى تتوحش وتطارد الناس وتفترس الأطفال. وشعرت بصداع حاد. وعدنا إلى الحجرة. وانهمكت أختى فى تنظيفها، وأخذت أتنقل بين الصالة والمطبخ والحجرة وأنا أدخن وأتحاشى الاقتراب من النافذة. وخلعت ملابسى وتمددت على السرير. ودق الجرس فقمت أفتح. كان العسكرى هو الطارق. وقلت له: دقيقة واحدة. وأسرعت إلى الحجرة فجئت بالدفتر وأعطيته له، فكتب اسمه أمام اليوم وانصرف. وعدت إلى السرير فاستلقيت فوقه. وأشعلت سيجارة. وجعلت أتأمل السقف. وجاء العسكرى مرة أخرى. وظللت ممداً على السرير دون أن أنام. ودخنت كثيراً وجاء الصباح فقمت واغتسلت وارتديت ملابسى وخرجت. وتناولت ساندويتشاً، وابتعت صحف الصبح كلها، ثم ركبت المترو. وراقبت أبواب العربة وهى تنغلق. ووقفت بجوار حجرة السيدات، وجعلت أتأملهن واحدة واحدة. كانت شعورهن مصففة بأشكال معقدة ووجوههن مثقلة بالأصباغ. ونزلت فى الإسعاف. وكان هناك رجل على الرصيف بجوار الحا
وقد غطته جرائد ملوثة بالدماء، وعلى الرصيف وسط الشارع تجمعت عدة نساء بملاءا
سوداء جعلن يلوحن بأيديهن ناحية الرجل وهن يولولن. وركبت الأتوبيس إلى بيت من
وقابلتنى أمها. وقبلت يدها. ولم تعرفنى فى البداية. وجلسنا نتحدث. وكان لا بد
أحدثها عن زوجها. وقلت لها إنى كنت معه إلى آخر لحظة.

كنت أجلس إلى جواره ويدى مقيدة إلى يده. وكنا فى مؤخرة السيارة وخلفنا بقية السيارات. وكان هو يعرف ما سيحدث لكنه لم يقل شيئاً. وكان يردد فى صوت خافت مقطعاً من أغنية حب قديمة. وكان الهواء لاذعاً ولم يكن من شئ يقينا برودته. وأخذت أرتجف وأسنانى تصطك. ولم نكن نرى شيئاً من الطريق. وجعلنا نتحدث عن هيمنجواى. وفى الظلام رأيته يخرج مشطاً من جيبه ويمشط شعره الذى امتلأ بالبياض. وكنت أعرف أنه يصبغه ليخفى بياضه. وكان الصمت يسود العربة. وأمامنا لف أحمد رأسه بفوطة وهو يتأوه. كان الصداع يفترس رأسه عندما يرتجف داخله. وعندما وصلنا كان ذلك فى الفجر. وأنزلونا بالعصى. وجلسنا على الأرض. وكنا نرتعش من البرد والرهبة. وكان هو أطولنا. وسمعت صوتاً يقول: ها هو. وضربوه على رأسه. وقالوا له: اخفض رأسك يا كلب. وأخذوا ينادون علينا. ثم نادوا عليه. وكانت هذه هى آخر مرة رأيته فيها.

وقالت لى: تصور جاءنى منه خطاب قبلها يقول فيه إن الأمر لن يستمر طويلاً. وقلت لها إنه كان يقول لى دائماً إنه لم يحدث أن نام بالليل ومنى بين ذراعيه. وكان يصفق بيديه ويقول: سأنطلق قبلكم. كان يود الانطلاق بأى ثمن. وتطلعت أم منى بإعياء حولها وهبط جفناها المنتفخان فوق عينيها. وغاص رأسها فى جسدها المترهل القصير. وأشارت لى أن أقترب منها وهمست: هل كان يحبنى حقيقة؟ وقلت لها: بالطبع.

فماذا أقول لها، وما الفائدة أن نحقق الأمر على وجه الدقة بعد أن انتهى كل شئ، ثم من ذا الذى يعرف على وجه الدقة ما يدور داخل إنسان آخر؟ ويقولون إن بعض الناس خلق للحب، والبعض الآخر لم يُخلق له. ويقول آخرون إن الحب لا يوجد إلا فى الروايات. أما هو فقد حكى لى مرة حكاية واحدة طارده أهلها بالنبابيت لأنه لم يكن من دينها. ثم كانت هناك واحدة أخرى لكنها ماتت

فجأة. وثالثة اكتشف أنها اتفقت مع زوجها على ضرورة إنجاب طفل بأى طريقة. وكان قد تعدى الخامسة والأربعين ويقترب من الخمسين. وكان يريد طفلاً. وفى يوم كنا نقف فى الشمس سوياً وكان شارداً. وكنت أثرثر بينما هو مستسلم لشروده. ولم يكن يصغى لى. وربما كان يحسب الأمر فى ذهنه ... لكنى فى مرة كنت أهبط السلم بجواره، وكنا نقترب من الطابق الأرضى. وسمعنا صوت دق سريع متلاحق على السلم. ثم ظهرت أمامنا فتاة طويلة توقفت أمام باب المصعد. وكان ضوء الشمس يسقط من نوافذ السلم الزجاجية على وجهها. وتطلعت نحونا. كانت تضحك لسبب ما وشعرها ثائر وخداها حمراوان. ولم تكن تستقر فى مكانها. وكان يهبط بجوارى وعيناه عليها. وسمعته يصعد تنهيدة حارة.

وقامت إلى حجرتها وعادت حافظة صغيرة أخرجت منها بعض الأوراق وناولتنى ورقة بالية وقالت: هذه قصيدة كتبها لى قبل أن نتزوج.

وكانت شاردة بنظراتها دائماً وعندما يسألها فيما تفكر تقول:فى الحياة والموت. وكتب هو:

أنا حزين يا طفلتى.حزين ووحيد.
فى فراشى أرقد،
فراش بارد ومیت ..
بلا أحد أتحدث إليه
بالكتب كلها وقد قرأتها
بلا أحد أضحك معه
بلا دموع أذرفها.
إنه الموت

بل أفظع
فعندما تموت لا تستطيع أن تفكر
إلا إذا كان الدود يفكر
وعندما تكون وحيداً، تفكر
تتوق وتتطلع وتسعى
ولا تعرف ما تسعى إليه.
إنها الحياة والموت ..
إنها ليست حياة على الإطلاق
سوى أنى لم أمت بعد ...
....
لكن صه! ها هى بعض الخطى
خطى بشرية
إنهم آتون، إنهم يقتربون
أهم حقاً؟ أجل! كلا! ربما!أجل! ها هم يدقون الجرس
أسمع خطى بشرية
أسمع أصواتاً بشرية
تسطع بالضحك.
صديق؟ كلا، أكثر ...
إنهم أصدقاء يا طفلتى.
....
لست حزيناً بعد يا طفلتى،

لكنى خائف

فهم سيرحلون ويتركوننى من جديد

للحياة والموت!

ودق الجرس ودخل صخر، وكان قد حلق شاربه ومشط شعره وحمل كل صحف الصباح تحت إبطه. ودق الجرس مرة أخرى ودخل شاب أنيق. وقالت له السيدة مشيرة إلى صخر: هذا صديق زوجى. وقال الشاب: أعرفه. وقام صخر على الفور ولبس نظارته، وجعل يتمشى فى الحجرة. وكانت هناك بعض الكتب بالإنجليزية والفرنسية على الرف فجعل يقلب فيها ثم وضع يده فى خاصرته، وحمل كتاباً منها إلى النافذة ففتحه، وجعل يقلب فى صفحاته وهو ينظر للشاب الأنيق من فوق نظارته بين اللحظة والأخرى.

لا بد أنها كانت من أسعد لحظاته. إذ يشعر أن ثمة شخص يعرفه لسبب ما. ففيما مضى كان يعتقد أن الجميع يعرفونه ثم اكتشف الحقيقة تدريجياً. وعندما رأيته لأول مرة كان عارى الصدر يمشى بخطوات بطيئة ويرفع إصبعه كل لحظة ليداعب شاربه. وفى تلك الأيام كان الزعماء يحتفظون بشوارب مختلفة الأشكال. ولم تكن صدفة أن كل واحد منهم كان له شارب متميز عن الآخر. ثم اكتشف أن هذه الشوارب كانت خداعة. فقد ذهب أصحابها وذهبت موداتها. ولم يبق شئ فى القلب. ولم يكن قد امتلأ مرة. وفى الباب الحديدى جعل يضرب رأسه حتى كادت تنشق. وكان يبكى.

ومن النافذة رأيت فتاة فى المنزل المقابل تحتضن فتاة أخرى وتقبلها فى شفتيها.

ودخلت فتاة عوراء وبكت. وأخذ صخر يمسح على شعرها بيده وهى تبكى. وقالت السيدة إن الفتاة هكذا، ما أن ترى رجلاً حتى تبكى. وعادت منى أخيراً من المدرسة، وقلت لها: أنا صديق بابا. فنظرت إلى فى عداء. وأخذتها إلى النادى. وكان هناك أطفال آخرون. وقلت لهم

أن ينزلوا معها إلى المياه لأنى لا أعرف السباحة. وأخذوها ونزلوا. وجعلت تجرى وتلعب وهى سعيدة. وكان هناك خشبة تساعد على العوم. فتعلقت بها. لكن طفلة أخرى سمينة جذبت منها الخشبة لتعوم فوقها. وتشبثت منى بالخشبة. وأمسكتها الطفلة السمينة من شعرها وجذبته فى عنف لتبعدها عن الخشبة، وأخذت الخشبة ونامت فوقها. كانت منى الآن بعيدة عن حافة الحوض، وأسرعت أجرى ناحيتها على الأرض. كانت ترتفع وتهبط فى الماء وهى تلهث فى قوة، وقد اتسعت عيناها فى رعب. وناديت عليها. لكنها هبطت تحت الماء ولم تظهر ثانية. وأسرع أحد السباحين إلى نجدتها وجذبها إلى أعلى، وحملها إلىّ. وأخذتها إلى بيتها. وقالت لى ونحن نصعد السلم: عندما يكون هناك أحد سأقول إنك أبى فلا تقول لا. ودخلنا المنزل. كانت أمها ترتدى ملابسها فانتظرتها. ثم وقعت عينى على ساعة الحائط فقفزت واقفاً، وأسرعت إلى الباب وقفزت إلى الشارع. لم يكن هناك وقت على موعد مجئ العسكرى. ووصلت حجرتى وأنا ألهث. ووجدت خطاباً ينتظرنى. وبحثت عن اسم الراسل فوجدته من نجوى. قرأت الخطاب فى بطء. ثم أشعلت سيجارة وتمددت على السرير، وقرأت الخطاب من جديد.كانت تتساءل عما إذا كنا سنلتقى من جديد بعد كل هذه السنين. وأغمضت عينى على ما أمكننى استرجاعه من صورتها: عينيها الحانيتين وفمها الممتلئ. ودق الجرس فقمت أفتح. كان العسكرى. واستمهلته حتى عدت إلى الحجرة، فأحضرت الدفتر وأعطيته له، فوقع اسمه، وانصرف. واحتفظت بالدفتر فى جيبى إلى حين عودته. ودق الجرس ثانية. وعندما فتحت الباب وجدت نجوى أمامى. احتضنتها وضمتنى هى بعنف وألصقت جسمها كله بجسمى. لكنى لم ألتصق بها. وأبعدتها عنى، وجعلت أتأملها. ثم اقتدتها إلى الحجرة وأطفأت النور. وجلست على السرير وأجلستها بجوارى. ثم جذبتها ناحيتى وقبلتها فى شفتيها. أبعدت وجهها وقالت: احكى لى. لم تكن عندى رغبة فى الحديث. ومررت بيدى على وجهها. كان ساخناً ناعماً. وأبعدت وجهها وهى تقول:

تكلم، قل ما حدث. ووضعت يدى على فمها وجذبت رأسها إلى وقبلتها. وأمسكت بشفتيها بين شفتي. وعضتني هي بنفس الطريقة الفجة غير المدربة ثم ابتعدت عني.

هذا ما كان يحدث دائماً. فى أول مرة قبلتها كانت خجلى. وكنت أجلس بجوارها والضوء يسقط على خدها. وتوقفنا عن الكلام وأسندت رأسى إلى كتفها ولم تعترض. وقبلتها فى خدها. ثم شفتيها. وعندما تشجعنا قليلاً، أمسكت بشفتى التحتية وعضتها بقسوة. وتألمت. كنت أريد أن أحس بشفتيها ناعمة فى فمى. ولم أكن أشبع منها. ولو استطعت أن أظل محتضناً اياها طول اليوم لفعلت. كانت هناك سخونة فى وجهها وفى ساقيها. وعقب كل مرة كنت أجعلها تقف عارية وأتأمل ساقيها. كانا ينسابان فى جمال ونعومة وسمرة. وكنت أطلب منها أن تعرى ساعديها لأقبلهما وأحسهما على جسدى. لكنها كانت تتردد. وفى الظلام كنا نرقد، ونلتصق ببعض فى عنف لننسى العالم وكل شئ ولا نعود نفكر فى أى شئ أو نخاف من أى شئ وعندما يكون خدى لصق خدها وأنفانا متلامسين ورأسانا متجاورين وعيوننا تحدق إلى نفس المكان من السقف، لا تصبح هناك أهمية لأى شئ. وفى اللحظة التالية يتحرك رأسى وتزحف شفتاى إلى شفتيها، ونتبادل القبل، أحياناً فى رقة وأحياناً فى عنف. ثم تبتعد برأسها وتتنهد. وفى أول مرة احتضنتنى فى عنف وقالت: أين كنت من زمان؟ وفى المرة الثانية قالت: يا حبيبى.وظللت صامتاً والكلمة تتردد فى أذنى للمرة الأولى فى حياتى وأنا لا أصدق نفسى. لكنها سرعان ما كانت تستدير وتقول: أريد أن أنام. وأظل راقداً على ظهرى، وعينانى على السقف بمفردهما، وأتمنى أن تستدير فجأة وتحتضننى. لكنى لا ألبث أن أشعر بتنفسها المنتظم، تنفس النائم الراضى القانع. وأستدير برأسى وأهب قليلاً لأراها، وقد أحنت رأسها إلى أسفل وأسندته إلى ساعدها وراحت فى النوم وقد تناثر

شعرها حول عنقها وتمدد ساعدها الآخر فوق جانبها. وأمر ببصرى على جسدها كله ثم أعود إلى مكانى.

تمددت بجوارى وأسندت خدها إلى يدها. وأعطتنى وجهها الذى أضاءه جانب من ضوء القمر. قالت: سأحكي لك أنا. تكلمت كثيراً ثم سكتت. وقلت لها إنى متعب. وإنى كنت أتشوق لها دائماً. وجذبتها ناحيتى. لكنها ابتعدت.وطلبت منها أن تعرى ساعديها. قبلت ساعدها وكتفها في ضوء القمر. لكنها ما لبثت أن قالت: الدنيا برد. وغطتهما. ثم تمددت على ظهرها. ولا بد أنها كانت تفكر فى نفس الشئ الذى أفكر فيه. هناك شئ ما ضاع وانكسر. وقالت: أريد أن أنام. وجذبتها ناحيتي وقبلتها. وطفت بشفتي على خدها حتى أذنها فقبلتها وسكنت هناك حتى ارتعشت. ورفعت عينيها إلىّ وابتسمت وقالت: وهذه أيضا، من أين تعلمتها؟

كيف ظلت تذكر وأنا قد نسيت. عندما صعدت بشفتى على ساقها، وقبلتها هناك لأول مرة، ونظرت لى بمزيج من السرور والدهشة والخجل، وقالت: من أين تعلمت هذا؟

مددت يدى إلى صدرها. لكنها أبعدت يدى. وقالت: لا. وتركتها. وتمددت بجوارها. وانتظرت أن تستدير فجأة وتحتضننى. لكنها لم تفعل. وظللت مستيقظاً. ثم شعرت بألم بين ساقي. فقمت إلى الحمام. وتخلصت من رغبتي. وعدت فتمددت إلى جوارها. ونمت واستيقظت. ونمت مرة أخرى. وعندما فتحت عيني فى الصباح وجدتها قد ارتدت ملابسها. وقالت سأخرج الآن. قلت: متى سأراك؟ قالت: سأمر عليك. وظللت ممدداً فوق الفراش. ثم قمت أخيراً فاغتسلت. وجمعت ملابسي القذرة، ووضعتها في إناء من الماء بعد أن أضفت إليه مسحوق الصابون، وحركته حتى كون رغوة كبيرة. وجاءت أختي وخطيبها. وارتديت ملابسي وخرجنا. وابتعت صحف الصباح. وفي مدخل المنزل التقينا بصديقة أختي

وخالها. وذهبنا إلى الكازينو. وقال خطيب أختى: نريد أن نفرح بك. وقلت له: هذه المسائل تستغرق وقتاً. وقال: لماذا؟ قلت: الحب ليس سهلاً. هز كتفه وقال: اسمع نصيحتى: الحب يأتى بعد الزواج. وقال الخال: لقد تزوجت خمس مرات. وتركتهم وذهبت إلى سامى فى بيته. وأدخلونى إلى حجرة الصالون. وانتظرته طويلاً. ودخلت الحجرة طفلة أدركت أنها ابنته. ووقفت بجانبى. وكنت متعباً وأريد أن أذهب إلى دورة المياه. وأطلقت من ظهرى رائحة شمتها الطفلة. وقالت: رائحة كاكا. وتجاهلت الأمر. لكنها عادة تردد: رائحة كاكا. فجعلت أتشمم حولى وأقول لها أين حتى اختفت الرائحة. وأخيراً يئست من مجئ سامى فقمت وانصرفت . وكان الزحام شديداً. وذهبت إلى المجلة فلم أجد أحداً. وفى الشارع كان الراديو عالياً، وسمعت أغنية إنجليزية عن الأطفال. واكتشفت أنها نفس الأغنية الجديدة التى يغنيها محمد فوزى. وركبت المترو. وكان الزحام فظيعاً وكدت أختنق. وراقبت وجوه السيدات المتعبة وقد ساح الكحل عليها. وذهبت إلى بيت سامية، ووجدتهم يأكلون. ابتسمت سامية عندما رأتنى وقالت إنها انتظرتنى طويلاً قبل أن تأكل. وكدت أسألها: صحيح؟ وسألتها عن طفلها فقالت إنه نائم. وشعرت بنفسى أبتسم. وكانت ابتسامتها بسيطة صريحة. ولم أكن أتصورها بهذه البساطة والرقة.

ماذا بعد؟ عندها زوجها وطفلها ولا مكان لأحد آخر فى حياتها وسرعان ما سأنصرف وسيكون هذا هو نهاية كل شئ.

وكانت تتنهد بين الحين والآخر تنهيدة حارة وتقول: يا رب. وقلت لها: لو سمعك فرويد لقال لك شيئاً. فقالت: بل أشياء. وفرغنا من الأكل وقامت.كانت ترتدى قميصاً خفيفاً على اللحم. ورأيت من تحت إبطها جانباً من ثديها عند انطلاقه من الصدر. ودهشت لأنه لم يكن متهدلاً. وكان أبيض كاللبن. وأدرت بصرى بسرعة. وتطلعت إلى عينيها الصريحتين المباشرتين. ودخلت هى لتنام: ونمت أنا أيضاً. وعندما قمت بحثت عنها

وذهبت إلى غرفتها. وكان السرير فى أقصى الغرفة. وكانت ترقد على ظهرها ومؤخرة رأسها ناحيتى وعينيها على الحائط المواجه لى، وطفلها جالس إلى جانب صدرها يتطلع حوله مدهوشاً من أثر النوم. وكانت ساقها عارية – بيضاء كاللبن – وغطتها بسرعة. وقامت وارتدت فستاناً برتقالياً. وجلسنا فى الشرفة. وقالت لى إن طفلها يحبنى. عشقت صوتها الهادئ الواثق وحركاتها التى لا تتكلف شيئاً. وقلت لها إنى أشعر أنى عجوز. نادراً ما ابتسم أو أضحك. كل الناس أراهم فى الشارع وفى المترو متجهمين دون ابتسام. ولأى شئ نفرح. وتكلمنا عن الكتب. وقالت إنها كفت عن القراءة منذ مدة، منذ أن جاء الطفل. وسألتها: هل قرأت رواية الطاعون. وشعرت أن شيئاً كثيراً يتوقف على الإجابة. لكنها قالت: لا. وفكرت أن أقول لها إنى أحسدها على بساطتها ورقتها. وقلت أفعل هذا عندما نفترق. وتطلعت إلى الساعة. كان لا بد أن أذهب. ووقفت هى أيضاً. قلت لها فى صوت خافت: تعرفين؟ أنت غريبة حقاً. وتطلعت إلىّ بدهشة. قلت:لقد اكتشفتك اليوم. وانحنت على طفلها وانهمكت فى إصلاح ملابسه، ولم أر عينيها جيداً. وجاء زوجها. وودعتهما. وسارا فى أثرى إلى السلم. وعند باب الحديقة تطلعت خلفى. كانت تدخل المنزل الهادئ الرطب. وراقبت رداءها البرتقالى وهو يختفى خلف الباب. ومشيت إلى البيت. ورأيت فتاة حلوة تسير بجوار قضبان المترو فى بطء كأنما تجد صعوبة ما مع حذائها. ودخلت المنزل. ووجدت الغرفة الخشبية فى مدخله مضاءة وبابها مفتوحاً. واختلست النظر داخلها فوجدت حسنية صديقة أختى. وصعدت إلى غرفتى. وجاءت أختى. قلت لها: سامية لطيفة. وسألتها: هل هى سعيدة مع زوجها؟ قالت: أجل. وقلت: أراهن أنها لا تحبه. قالت: مستحيل. أين ستجد رجلاً مثله فى الشخصية والمركز. وقالت إنهما كانا يتقابلان قبل الزواج.

وماذا لو كانا يتقابلان قبل الزواج.. كانت فى السابعة والعشرين.

وانتظرت فارس الأمل طويلاً دون جدوى.. وفى البيت لم تكن لها حجرة خاصة. كانت تنام فى غرفة أشبه بالصالة. لم تغلق على نفسها باب غرفتها أبداً، وتنفرد بنفسها، وتخلع كل ملابسها مثلاً. لم تقبل جسمها أمام المرآة. ولم يعد من الممكن أن تحتمل نظرات أبيها وأمها كل ليلة. لم يكن هناك من موضوع للحديث غير الزوج المنتظر. وتلام لأنها لم تستطع أن تحصل لنفسها على واحد. وذات ليلة التقت به عند إحدى صديقاتها. وفى اليوم التالى قالت لها صديقتها إنه يريد أن يتزوجها. وبعد عشر دقائق من المسير حتى باب المنزل، وأمام باب المسكن الذى تآكل طلاؤه، قالت لصديقتها: ولم لا؟ ربما كان الحبيب الذى تنتظره. ربما لم يكن كل هذا الحديث عن الحب والتقاء الأعين ورعشة الأرواح غير كلام روايات. ربما وجدت السعادة معه. ربما. الكلمة المعلقة فوق كل زواج جديد. ربما كان هذا هو الرجل المنتظر. ربما جاء الحب. وبعد سنة واحدة جاء الطفل. ها قد تم تقييدها إلى الأبد. وليس أمامها إلا الاستسلام .. وتلك المرة التى كان الراديو دائراً فيها ولمحت نظرة ساهمة فى عينيها، وقد اكتسى وجهها طابعاً حزيناً .. ماذا حدث بعد الزواج؟ وتصورتهما بجوار بعضهما على الفراش. وأحدهما ملول ساخط. أحدهما سيظل طول عمره يشعر أن جانباً فيه لم يتحرك. أن جزءاً من لحمه ودمه لم يهتز. أن بئراً فى أعماقه لم يكتشف.

قلت: هل تعرفين ما هو الحب؟ وتطلعت إلى بدهشة. كان سؤالى سخيفاً وساذجاً. قالت: بالطبع. وقلت: هل تحبين خطيبك؟ قالت: أجل. وقالت: عندما خطبنى لم أكن أطيقه ثم مع الزمن أحببته. وكان صوتها مرتفعاً. قلت لها: لماذا تزعقين؟ قالت: صوتى كده. وقالت إنها تريد أن تستحم، ولكنها لو فعلت سيتلف شعرها وتضطر للذهاب إلى الحلاق مرة أخرى. ودق الجرس. فحملت الدفتر وذهبت أفتح. لكنه كان خطيب أختى. وخلفه

جاءت صديقته حسنية. وقالت حسنية لأختى: تصورى أن خطيبى يغير من خالى. وقالت: إنه يقول أنى أقضى الوقت كله مع خالى. وقال خطيب أختى إنه كان يبحث طول اليوم عن السخّان. وإنه اشترى الثلاجة. وقال: هل يعرف أحدكم شخصاً مسافراً ليأتى لى بريكوردر. وجاء خال حسنية وأخذهم جميعاً إلى السينما. وبقيت بمفردى أمام المكتب. وحاولت أن أكتب. ودق الجرس، فأسرعت إلى الباب وأنا أتمنى أن يحدث شئ. أن يأتى أى أحد. ووجدت الكواء. ودق الجرس مرة أخرى. وعندما فتحت الباب فوجئت بنهاد وأبيها. ودخلا حجرتى على الفور. وقالا: لا بد أن تأتى عندنا غداً. وقلت لنهاد: لقد تغيرت كثيراً. فقالت باسمة فى رقة: آخر مرة رأيتنى فيها كنت صغيرة جداً. ورفضا أن يجلسا وقالا إن أمها تنتظر فى السيارة. وودعتهما إلى الخارج ثم عدت إلى حجرتى. وأخذت أدخن فى شراهة وأنا أفكر ولا أستطيع الكتابة. كانت تتأملنى بدقة. وفكرت أنها سمعت عنى كثيراً ولا بد أنها مبهورة.ودق الجرس مرة ثالثة. وكانت الدقة طويلة قوية. وحملت الدفتر وذهبت إلى الباب ففتحته. وأعطيت الدفتر للعسكرى ثم عدت إلى حجرتى وأطفأت النور واستلقيت على الفراش. ورحت فى النوم. ثم استيقظت فجأة على صوت الجرس. وعندما فتحت الباب لم أجد أحداً. وعدت إلى الحجرة وتركت بابها مفتوحاً. ونمت من جديد. وقمت فى الصباح الباكر وحلقت ذقنى وارتديت ملابسى وحملت قميصا نظيفاً إلى الكواء، وعدت فارتديته ثم نزلت. وأخذت أبحث عن مكان ألمع فيه الحذاء. واشتريت الصحف. وأخيراً ركبت المترو. وتوقف السائق فى الطريق ليضع قطعة أفيون فى فمه ويشرب الشاى. وفكرت أنه محظوظ. فقد وجد طريقة يستعين بها على مواجهة الحياة. ومضى يسوق فى بطء وأنا أتمنى أن يسرع كى لا أتأخر ويفسد الغبار أناقتى. ونزلت بعيداً عن البيت. وركبت تاكسى. وتوقفت به أمام البيت. وتطلعت إلى شرفاته فلم أجد أحداً بها. وصعدت إلى الطابق الأعلى ووجدت نهاد مع أمها أمام مائدة. ولم تشاهدا التاكسى. وجلست بجوارهما. كانت

نهاد تذاكر. وتأملتها فى دقة. كانت شفتاها كما أتمنى. السفلى مقوسة وأسنانها بارزة قليلاً. وكان صوتها هادئاً رقيقاً. وسألتنى أمها عما أفعل الآن. وكانت تتكلم بصوت عال. قلت لها إنى أكتب. قالت: هل تكتب قصصاً؟ وقلت نعم. قالت: من الكتب؟ قلت: لا، من رأسى. وقالت نهاد: إذن أنت شخصية. وأشعلتُ سيجارة. وقالت أمها: يجب أن تستقر. وقالت نهاد: أمريكا رائعة، ما رأيك؟ وقلت: أعجب بأشياء وأشياء لا. وقالت: اترك كل هذا والتفت لنفسك. وقالت: ساعدنى فى المذاكرة. وكان صوتها خافتاً. وأنا قد تعبت من الأصوات العالية. وقالت: تصور ماذا فعلوا بأبى. طردوه من شركته بعد أن أخذوها. وقالت إنهم تآمروا عليه واتهموه بأنه يتلاعب. وقالوا: نأكل. ونزلنا إلى الطابق الأسفل. وجلسنا إلى المائدة. وأخذت السلطة ثم الأرز فى طبقى. وسألتنى نهاد: ورك أم صدر. وكانت أختى قد حذرتنى وقالت حذار أن تأخذ الورك لأنك لن تعرف كيف تأكله بالشوكة والسكين. لكنى لم أدر كيف اندفعت وقلت لها أعطينى الورك. ووضعته أمامى وأمسكت بالشوكة والسكين، وعندما غرزت فيه الشوكة قفز من صحنى فى الهواء وسقط فى إناء السلطة. وقالت نهاد بهدوء: الفراخ لا تؤكل هكذا، كلها بيديك. وقلت لها إن أختى حذرتنى لكنى لم أستمع إلى تحذيرها. وقالت الأم إنهم فى أوربا يأكلون الورك بالشوكة والسكين. ولم أعرف كيف آكل بعد ذلك. وتعثرت فى المكرونة والبطيخ. وقالوا: أتعجبك الحال. وقال الأب إنه قابل ناساً قادمين من روسيا وإن الفقر هناك شديد. وقال إن الرأسمالية أفضل. وقالت نهاد فى حماس: هل يستطيع أحد أن يجادل فى هذا. وقالت: هل تؤمن بربنا؟ وقمت وغسلت يدى وجففتها فى فوطة. وصعدنا إلى الطابق الأعلى. وقدموا لى السجائر لكن لم تكن لدى رغبة فى التدخين. وتحدث الأب فى التليفون. كان يريد أن يشترى الأرض المجاورة. ووضعت الأم يدها على خدها وسرحت. ودخل الأب لينام. وقالت نهاد: هل أنت متعب؟ قلت: لا. وعدنا نستأنف المذاكرة. وقام الأب من النوم وجاء فبسط سجادة

الصلاة أمامنا وصلى، ثم جلس بجوارنا وجاءوا بالشاى. وقال: كيف حال نهاد. قلت: كويس. وأداروا التليفزيون خلفنا بصوت عال. وجاءت الخادمة والطباخة والدادة وجلسن على الأرض يتفرجن. وكانت نهاد تغافلنى وتتابع الفيلم. وقالت: أحمد رمزى لذيذ. وبدأت أشعر بالتعب. وقامت وجلست بجوارى.وكان ساعدها عارياً بجوارى. وكانت حريصة على ألا نتلامس. وسمعتنى الأم أشرح لها كلمة إنجليزية، فقالت: لا، ليس هذا هو المعنى. وتدّخل الأب ولم يكن يعرف غير الفرنسية. وقال إن الكلمة بالفرنسية لها معنى آخر. ولم أتكلم. واختلف الأب والأم. وطلبت منى الأم تأييدها. وقلت: غالباً هذا هو المعنى. وقال الأب: لا. ونظر إلىّ. فقلت: تقريباً. وأصبحت الضوضاء عنيفة. وقالت نهاد إن مخرجاً رآها فى الصباح وقال إنها تشبه لبنى عبد العزيز. ودخل بعض الزائرين. وقامت نهاد ترحب بهم وجلست بجوارهم فى نهاية الغرفة. وكانت تحادثهم فى حرارة وشوق ثم تغافلهم لتتابع أحمد رمزى. وأحسست بالصداع يحطم رأسى. وقمت لأنصرف. ونظرت إلىّ إحدى الزائرات متسائلة. وقلت: أنا ابن فلان. وضحكت وأشارت إلى أنفها وبرمت شارباً وهمياً ورفعته إلى أعلا. وقالت: أهو ذلك الذى كان بشارب ضخم؟ قلت: نعم. وصاحت الأم: أنا عاوزاك. وفكرت: هل ستنحنى على وتعطينى خمسة جنيهات؟ وأشارت لى أن أتبعها إلى حجرتها. وكانت وصيفتها تجلس على مقعد. وهى فتاة سمراء ممتلئة. وقلت: هذه طبقتى. وفكرت أنى لو كلمت الأم لأمكن أن أتزوج هذه الفتاة. وسيقولون أنهم خدمونى ووجدوا لى زوجة طيبة على قدى. وناولتنى الأم لفافة ورق وقالت إنها قطعة قماش. ولم أعرف ماذا أقول. وكنت قررت أن أرفض لو أعطتنى نقوداً. ولم أحسب حساب القماش. وتضايقت ورفضت. لكنها أصرت وقالت: أنت مثل ابنى. ولم أعرف كيف أتصرف. فأخذتها وأنا أقول فى نفسى ها نحن قد كسبنا بذلة. وعدت إلى الصالة. ورافقتنى نهاد إلى السلم وخرجت من البيت. ولم أنظر إلى أعلى. ومشيت. وامتلأ حذائى بالغبار ولم أهتم وركبت المترو. وكان

الزحام رهيباً. وتكرمشت ملابسى. ولم أقاوم. وفى إحدى المحطات هجم على المترو عشرات من العمال العائدين إلى منازلهم. وشقوا طريقهم بين الزحام. ووقف أحدهم أمامى. وكانت عيناه محمرتين. واستند آخر على مسند مقعد، وسرح من النافذة. وبدأ ينام. وعندما تطلعت إليه بعد لحظة كانت رأسه تهتز مع حركة المترو وتصطدم بالمسند كل مرة وهو غارق فى النوم. وعندما نزلت من المترو شاهدت نفس الفتاة التى رأيتها من قبل تسير بجوار قضيب المترو فى بطء. وصعدت إلى حجرتى. ووضعت المفتاح فى القفل. نفس الباب والمفتاح فى نفس الأسر التى من طبقتنا. ودخلت وخلعت ملابسى ووضعت البنطلون فى الشماعة وعلقتها على الحائط. ثم استحممت. وعدت فجلست أمام المكتب. وأدرت الترانزستور. ورأيت لفافة القماش أمامى ففتحتها. ووجدتها قماش بيجامة لا بذلة. وأشعلت سيجارة. وجاءت أختى وقالت: كم بقى من الخمسين قرشاً. حسبت المواصلات ولم أجسر على أن أذكر لها القروش العشرة أجرة التاكسى. وجاء خطيبها وقال إنه وقف ساعتين أمام الجمعية ليشترى اللحم. وقال إن الحالة لا تطاق. وقال: أنتم تريدون أن تنشروا الفقر. وقال: ليست أمامى فرصة للثراء. لو كوّنت أى شئ ستأخذه الحكومة. وجاء عادل وزوجته. وقدمت له سيجارة فقال: أنا لا أدخن ولا أشرب القهوة. وقال إنه فى الصباح فقط يتناول فنجاناً من الشاى فى البيت. ومع ذلك يصل حسابه فى المكتب إلى ثلاثين قرشاً طلبات للآخرين. وقال إنه بعكس الموظفين الآخرين لا يرتشى. وقالت زوجته: خيبة. وقالت: إن العمال لم يعد أحد يعرف كيف يكلمهم. وقال عادل إن سائق خاله فهمى بيه لا يستيقظ قبل العاشرة صباحاً بينما يقوم فهمى بيه من الفجر. وقال لخطيب أختى: سأدلك على أحسن مكان تشترى منه صبانة. وقال خطيبها إنه أوصى على ولاعة رونسون ستأتيه من بيروت. وقالوا: لابد أن نذهب الآن. وانصرفوا، وظللت جالساً أمام المكتب أدخن. ثم قمت وأطفأت النور. ووقفت فى النافذة أتشمم الهواء. وكانت نافذتى تطل على مؤخرات عدة منازل. ولم يكن يبدو لى من الشارع

غير جانب صغير. وملت برأسى إلى الخارج، ولويت رقبتى لأرى المحلات المضاءة والناس وهى تروح وتجئ. وتعبت فتراجعت برأسى إلى الوراء، وأسندت ساعدى إلى حافة النافذة. وكانت هناك نافذة مظلمة أمامى. وإذا بها تضاء فجأة. ومن خلالها ظهرت فتاة جعلت تخلع ملابسها ببطء. ووقفت أخيراً عارية تماماً. ثم ارتمت على سرير فى ركن الغرفة. ورقدت على وجهها وظهرها للضوء ورأيت استدارة جسمها والظلال الداكنة التى تركها الضوء فى ثناياه. وفجأة دق الجرس. فتناولت الدفتر وتلكأت قليلاً حتى أشعلت سيجارة وأخذت علبة السجائر معى. ودق الجرس مرة أخرى. وأسرعت إلى الباب. وفتحت للعسكرى وأعطيته الدفتر وأنا أخرج علبة السجائر. وأعطيته سيجارة. وانصرف. وعدت إلى الحجرة فألقيت الدفتر على المكتب وتطلعت إلى النافذة المقابلة فألفيتها مظلمة. استلقيت على الفراش أدخن حتى انتهت السيجارة، فقذفت بها من النافذة ونمت. وفى الصباح خرجت واشتريت الجرنال وزجاجة لبن صغيرة وخبزاً. وعدت فغليت اللبن ووضعت فيه السكر ثم غمست الخبز فى اللبن. وقرأت الجرنال. ثم خرجت. وركبت المترو. وتوقف المترو قبل محطة الإسعاف. ونزل الركاب. ووجدت عرباته مقلوبة على جانبها بجوار القضبان، وقد برزت أحشاؤها الداخلية السوداء. وسرت إلى المقهى الذى يجلس فيه مجدى. وكان يجلس فى ركن بمفرده. وقال: يجب أن نثبت وجودنا. وتأملت التجاعيد التى حفرت خطوطها فى كل مكان بوجهه. وقال: الجميع أولاد كلاب. وقال: أنت قوى بالناس. أما بمفردك فأنت ضعيف. وتقلصت عضلات وجهه.

فإذا نظرت إليه لا تعرف ما إذا كان يحقد أم يتألم. وهل يوجد إنسان لا يحقد ولا يتألم؟ من الرغبة فى السيطرة ومن الضعف فى مواجهة العالم. من الافتقاد للحب ومن العجز عنه. من احتقار الناس ومن الحاجة إليهم. من الإحساس بالقهر ومن ممارسة الاضطهاد. من معاناة الألم ومن الاستمتاع بإيلام الآخرين.

من الثقة الكاملة ومن الشعور بالفشل. من التغنى بحب الناس ومن استغلالهم كقطع من الطوب تبنى بها بيتك. من الاعتقاد بأن الجميع يحبونك ويؤمنون بـك، ومـن رؤيتهم يتخلون عنك .. وكان الأمر فى البداية نبلا وأصبح الآن لعنة. وجف النبع الذى كان يتألم للآخرين .. وعندما وقف وظهره يقطر دماء كان صامداً لا يهتز، يستعذب قدرته على الصمود. لكن الناس لم تعد تعبأ بهذا اليوم، فقد تغيرت روح العصر. وليس صدفة أن الكلمات التى يستخدمها قد تغير مدلولها منذ زمن، وبعضها كاد يصبح بلا مدلول على الإطلاق .. وكان مشتركاً فى اللعبة ويفهم قواعدها ويسير عليها. لكنهم طبقوا القواعد عليه، وسالت الدموع على مقعد وحيد. وأفظع شئ أن تبدأ فى البحث عن نفسك متأخراً .. وقال إنه لم يحب أبداً. وهو يؤمن بأنه أفضل من الآخرين - وربما كان ولا يجد ما يمنع من ذلك وقد قدم كل شئ لديه - لكنه مهزوم فى لعبة لا تعرف الرحمة وليس لها فى الحقيقة أية قواعد. ولا يمكنك فيها أن تقرر الصح من الخطأ، وليس المنتصر هو المصيب بالضرورة، إنما هو أمهر وأمكر وأكثر حظاً.

تركته وذهبت إلى المجلة. وسرت فى ممر طويل وأنا أنظر فى كل غرفة ولا أجد أحداً. وكانت هناك غرفة أمامى فى نهاية الممر. وعندما اقتربت منها رأيت امرأة تجلس إلى مكتب وقد أسندت خدها إلى يدها. ولمحت دموعاً فى عينيها. واستدرت عائداً من حيث جئت. وسرت فى اتجاه المترو ثم ركبته. وجلست بجوار النافذة. وعندما تركنا ميدان رمسيس سار بجوارنا قطار فى نفس الاتجاه. وكان ممتلئاً بالجنود العائدين من اليمن. وكانوا يهللون من النوافذ ويهتفون ويلوحون بأيديهم. وعندما أصبح المترو فى حذائهم، ازداد حماسهم وهم يتطلعون إلى ركابه. وتأملهم هؤلاء فى جمود ولا مبالاة. وشيئاً فشيئاً هبط حماس الجنود. وكان المترو قد سبق القطار الآن. وأدرت رأسى إلى الخلف. كانت أيدى

الجنود تتدلى من نوافذ القطار. ولمحت أحدهم يرمى بغطاء رأسه إلى الأرض. ونزلت أمام البيت ورأيت الفتاة الجميلة التى تسير بجوار قضيب المترو كل يوم. واكتشفت أنها عرجاء. واشتريت طعاما وصعدت السلم. ووجدت باب الشقة مفتوحاً وجارى فيها يصلح قفل باب غرفته. دخلت وأكلت، ثم دخنت ونمت، وقمت لأجد أختى قد جاءت. ودخلت الحمام وخلعت ملابسى وفتحت الدش على جسمى. وسمعت صوت مقبض باب يقع على البلاط. وأغلقت الدش وجففت جسمى وارتديت ملابسى ثم خرجت من الحمام. وكان هناك قرع مستمر على شئ ما. ووقفت أتكلم مع أختى وأنا أمشط شعرى. وسمعت القرع مرة أخرى. وتبينت فيه قرعاً على الجدار. وقلت لها إننا كنا نفعل هذا دائماً عندما نريد أن نكلم بعضنا أو نحذر بعضنا.

وكان ذلك يحدث كل صبح. ونفتح عيوننا على صوت القرع الرتيب على الجدران ونهب واقفين ونحن نرتب كل شئ ونحاول أن نتذكر حتى لا ننسى شيئاً، ولا زال النوم فى عيوننا. ثم نجلس القرفصاء بجوار الحائط ونحن نرتجف من البرد. ويسكت القرع. وننتظر. ثم نسمع صوت أقدامهم على البلاط وشخشخة السلاسل والمفاتيح. ونقفز فى أماكننا عندما يصطدم المفتاح بالقفل. ثم يدخلون. وتلتصق عيوننا بعيون جامدة لا تنطق. وتصطدم آذاننا بأصوات سريعة باترة لا تتمهل. وتتعلق قلوبنا بأيدى سمينة ثقيلة لا تفكر. وحولنا الجدران تلتقى فى أربعة أركان. والباب مغلق. والسقف قريب. لا منجاة.

خرجت إلى الصالة. وحانت منى نظرة إلى حجرة جارى. كان بابها الزجاجى مغلقاً. ولمحت ظله من وراء الزجاج ويده تخبط عليه بعنف. ووجدت مفتاح الباب ملقى على الأرض. تناولت المفتاح ووضعته فى الباب وفتحته له. وقال لى وهو يبكى إنه نسى المفتاح عندما دخل وإنه يخبط لى منذ ساعة. وقالت أختى يجب أن تزور حسنية وسترى

خطيبها. وذهبنا، ورحبت أمها بى وقالت يجب أن تستقر. وقالت لأختى: زوجيه وهو يهدأ. وجاء خطيب حسنية وقال إنه نظم مكتبه فى الوزارة تنظيماً رائعاً. فهناك لوح من الزجاج السميك يغطيه. وعلى اليمين أجندة فخمة من الخارج. وفى الوسط محبرة من العاج لا يوجد مثيل لها الآن. وإلى اليسار بعض الملفات العاجلة. وفوق رأسه علق لفظ الجلالة. وقلت إن الشمس أوشكت أن تختفى ويجب أن أنصرف. وتركتهم وأسرعت إلى المنزل. وقابلت العسكرى على السلم. وقال: تأخرت. وأخرجت علبة السجائر لكنه هز رأسه وقال: من الممكن أن تقضى هذه الليلة فى الحبس. وأخرجت عشرة قروش. وصحبنى إلى الشقة فدخلت وأحضرت الدفتر. ووقع فيه وانصرف. وخلعت ملابسى فى بطء. وغسلت وجهى، ثم أعددت فنجاناً من القهوة. ورتبت المكتب ومسحت الغبار الذى تراكم فوقه. وأمسكت القلم لكنى لم أستطيع أن أكتب. وتناولت إحدى المجلات. وكان بها مقال عن الأدب وما يجب أن يُكتب. وقال الكاتب إن موبايان قال إن الفنان يجب أن يخلق علماً أكثر جمالاً وبساطة من عالمنا. وقال إن الأدب يجب أن يكون متفائلاً نابضاً بأجمل المشاعر. وقمت واقفاً وذهبت إلى النافذة وتطلعت إلى نافذة الأمس. لكنها كانت مغلقة. وعدت أجلس إلى المكتب. وأمسكت بالقلم. لكنى لم أستطع الكتابة. وأغمضت عينى. تصورت فتاة الأمس بجسمها الأبيض أمامى على الفراش، ممتلئة وشعرها طازج، وأنا أقبل كل جزء منها. وأمر بخدى على فخذها وأسنده إلى نهدها. وامتدت يدى إلى ساقى. وجعلت أعبث بجسمى. وأخيراً تنهدت. وارتميت على مقعدى متعباً وأنا أحدق فى الورقة بنظرة فارغة. وبعد قليل قمت وعبرت فى حذر فوق الآثار التى تركتها على البلاط أسفل المقعد. وذهبت إلى الحمام وغسلت جواربى وقميصى وعلقتها فى النافذة. وأطفأت النور بعد أن تركت باب الحجرة مفتوحاً لأسمع العسكرى عندما يأتى. وأشعلت سيجارة وتمددت على السرير. ونمت. وفى الصباح ذهبت إلى منزل أخى. وكانت التجاعيد قد زحفت على وجهه وامتلأ جلده ببقع بيضاء.

وقال: تلف كل شئ منذ أصبح العمال فى مجالس الإدارات. وقالوا نصعد إلى الطابق الأعلى لنرى ابنته الكبرى.

وكان أخى قد بنى الفيلا منذ خمس عشرة سنة. وقال إن زوجته هى التى اشترت الأرض، وكانت أول مرة يعلم أن معها نقوداً. وكان أبى وقتها حيا. وكان يأتى كل يوم ليراقب البناء. وكنا نسكن فى حجرة ضيقة. وأكمل أخى البناء، وأجّر الدور الأول وسكن فى الثانى. ثم زوّج ابنته الكبرى وأجرّ لها الدور الثالث. وعندما تزوجت ابنته الصغرى أخلى الدور الأول وأجّره لها. وظل فى الوسط مع زوجته. وفى البداية كان يقضى ساعة كل يوم فى الحديقة يقص أعشابها وهو يدخن البايب.

وسألتنى عما إذا كنت أقرأ لزوجها. وقال زوجها إن الشيخ عبد الباسط قال له إن الصلاة فى المسجد الأقصى تحسب بألف ثواب. وقالوا ننزل إلى الطابق الأسفل لنرى الابنة الصغرى . واستقبلتنا على الباب وهى تحمل طفلها على ساعديها. وكانت عيناه قريبتين من بعضهما. وقالت: أليس ابنى جميلاً؟ وضحكت، ومدت فى ضحكتها لتثير زوجها. وكان يقف بجوارها وهو يداعب نجوم بذلته العسكرية بأصابعه. وقال إن العسكرى إذا فتح فمه لطمه على وجهه فيصمت. وقال: آن لك أن تتزوج. وقال: افعل مثلى. المهم فى البنت هو الأصل. وأداروا التليفزيون. واعتدل أخى فى عباءته وابتسم وقال: شوفوا هذا الفيلم. وكان يروى قصة فتاة تركت شاباً فى سنها وأحبت كهلاً. وعندما انتهى الفيلم تطلع أخى إلينا مزهواً. وأخذنى إلى حجرته.وأغلق الباب، ثم أخرج عدة ملفات قديمة. وجلس إلى المكتب وأشعل البايب. وأرانى قصصاً كتبها وقصصاً ترجمها. ومقالات بعنوان "لك يا سيدتى" وكتاباً له عن بناء الأجسام وآخر عن معارك الحرب العالمية الثانية،وثالث عن الأمير عمر طوسون. وصورة قديمة له بالقبعة والبايب فى حديقة منزل. وصورة أخرى مع فتاة ألمانية.

وقال إن ذلك كان فى أيام اقتراب روميل من الإسكندرية، وكان قد بدأ يتعلم الألمانية. وأرانى صورة ثالثة فى مكتب شركة أمريكية. وصورة رابعة فى شركة استيراد مصرية. وقال: نفسى فى فتاة صغيرة. وقال إنه لم يحب أبداً. وقال إنه بالأمس أراد أن ينام مع زوجته، لكنها رفضت لأنه كان قد جعلها تشترى الفاكهة من نقودها وعندما أعطاها جنيهين فتحت له ساعديها. وجمع الأوراق المصورة وأعادها إلى ملفاتها. وقال: أنا الآن انتهيت. سأربى أرانب. ونادوا علينا لنأكل. ثم خرجت وذهبت إلى المجلة وقابلت سرى. وقال لى إنه يريد أن يساعدنى لكن الظروف لا تمكنه. وقال: هل قرأت مقالاتى؟ أنا الوحيد الذى يكتب هكذا الآن. وقال: فؤاد رجل تافه، تصور أنه قال عنى أنى تلميذه. وتركته وذهبت إلى حجرة سامى فى آخر الممر. وفى هذه المرة وجدته. وقال لى: ليست عندى أى فكرة عما كتبته. ووقفت بجوار مكتبه وهو يكتب. ورفع رأسه إلى فجأة وقال: مانعطلكش. مُر على بعد يومين. وخرجت إلى الشارع. ومشيت إلى المترو. ورأيت فتاة رائعة الجمال من زجاج شركة الطيران. وركبت المترو إلى البيت ولم أجد مقعدا خاليا لى. ووقفت أتأمل الناس من حولى. وفى حجرة السيدات لمحت جانباً من وجه امرأة. كانت تطل من النافذة. وكانت ترتدى فستاناً أبيض بغير أكمام. وتبدو نظيفة جداً. ولا شك أنها استحمت قبل أن تخرج. وكان شعرها طويلاً ناعماً، ولا يمكن أن تكون قد فردته عند الحلاق. ولمحت بجوارها طفلة. واضطرب صدرى عندما تحولت بوجهها كله ناحيتى ورأيت سمارها الخمرى. وكان وجهها بلا كحل أو أصباغ. وألفيت نفسى فجأة فى مواجهة عينيها. كانتا واسعتين صافيتين. وللحظة ضعت.

كانت عيناها نجمتين فى فضاء ساكن. وكنت سابحاً فى الفضاء، ضائعاً. وكان بالليل عندما التقت عيوننا. وكانت عيناها تلمعان فى الضوء. رأيت صورتى فى بياضهما الواسع ورأيتها فى سوادهما العميق. وكان ساعدها عارياً بجوارى. وبشرتها مشربة بالحمرة وتبدو ساخنة. واشتقت أن أمد أصبعى وألمس ساعدها

عند استدارته الممتلئة قبل الكتف. وكانت بلوزتها بيضاء خفيفة. ولم تكن ترتدى مشداً. فقد كنت أرى نقطتى ثديها على البلوزة. فى المكان الذى تستريحان فيه على الحرير. وكانت بشرة وجهها ناعمة. وشفتاها ممتلئتين. والسفلى دائما منفصلة قليلاً عن العليا ومقوسة، داكنة اللون كأنها ملتهبة من شئ ما. وعندما كانت تنظر إلى وتبتسم، كانت نظرتها تتعلق بى وأحار. وعندما احتضنتها أول مرة سكنت لحظة ثم أبعدتنى عنها. وكنا نجلس فى الظلام. ثم مدت يدها إلى رأسى وجعلت تعبث بشعرى. ثم تسللت يدها إلى حافة قميصى، ثم ظهرى، وجعلت تتحسسه بكفها. عندئذ احتضنتها ودفنت رأسى فى رقبتها، واستمتعت لحظة بنعومة جلدها على خدى وجعلت أتشمم رائحتها النظيفة. ثم رفعت رأسى قليلاً وقبلتها فى فمها. ودخت. وعندما أردت أن أعيد الكرة دفعتنى عنها. وتعلمت أن أكتشف فيها أشياء أخرى. عندما تزم شفتيها وتركن إلى الصمت مهما حدث، وأكاد أجن لأعرف لماذا، وعندما تبدو أحياناً رقيقة حانية وأعبدها. وعندما أجلس أمامها وعينى على وجهها ويديها وساقيها وأكاد أبكى من الرغبة. وعرفت الألم عندما كنت أنظر إلى عينيها اللامعتين وخديها الشهيين. وعندما كانت أصابعى تتسلل إلى ساعديها وساقى تقترب من ساقيها وترفضنى. وفى آخر مرة كنت سأجن. كنت قد بدأت أوقن. وأخذتنى بين ساعديها. وسمحت لى أن أتحسس صدرها ويديها وأقبل خديها وشفتيها، لكنها كانت باردة.

لكنها لم تلبث أن حولت عينيها بعيداً. ولم تلتفت نحوى أبداً بعد ذلك. ونزلت أمام البيت واشتريت طعاماً. ودخلت المنزل. ووجدت الحجرة الخشبية التى يستخدمها خال حسنية مضاءة. وبابها مفتوحاً وعندما نظرت خلاله وجدته معتمداً برأسه على كفيه يتأمل صورة فتاة فى إطار مذهب على مائدة صغيرة أمامه. وكانت الصورة لحسنية. وكانت

عيناها فى الصورة واسعتين رائعتين. وابتعدت قبل أن يحس بى. وصعدت إلى غرفتى. وخلعت ملابسى. وأدرت الترانزيستور، فلم أجد أغانى أو موسيقى وجعل يخروش. وجلست أحاول الكتابة. وعلى الأرض ظهرت بقع سوداء من أثر لذتى. وجاء حسن وقلت له لا بد أن نأتى بامرأة الليلة. وقال سأحاول. وخرج. وعاد بعد نصف ساعة. وقال: أخى على السلم ومعه فتاة. وقال: اختف قليلاً لأننا قلنا لها إننا اثنان فقط. وقال: لا تخش شيئاً فلن تستطيع أن ترفضك ما دامت ستأخذ الثمن. وذهبت إلى المطبخ وأعددت الشاى. وجاء حسن. وقال إن شقيقه والفتاة فى حجرتى الآن. وحملت الشاى إلى الصالة ووضعته على المائدة. وجلست بجوار المائدة. وأشعل حسن سيجارة وجعل ينقر بأصابعه على المائدة. وفتح باب الحجرة بعد قليل وخرج أخوه، وصافحته ولم أكن رأيته من قبل. وكان ضخماً فى الأربعين. ودخل حسن الحجرة. وقدمت الشاى لأخيه. وقال لى: كيف الحال؟ قلت: عال. وقلت وأنا أشير بأصبعى إلى الحجرة: كيف هى؟ وهز كتفه وقال: لا بأس. وقال: لقد طفنا بكل الشوارع بالسيارة لكننا لم نجد غيرها لأن الوقت متأخر. وخرج حسن وقال لى: دورك. وأخذته جانباً وقلت له: لن أستطيع. ونظر إلى بدهشة: كيف؟ قلت: لا أدرى. ليست لدى رغبة. وهزنى وقال: لكن يجب أن تدخل. هذه مسألة مهمة. وقلت له إنى أدرك ذلك لكنى لا أستطيع. قال: تعال. ودفعنى نحو الباب. ودخلت. أغلقت الباب ورائى. وقال لى أخوه من وراء الباب: الجراب على المكتب. أشعلت سيجارة وقدمت لها واحدة. وكانت جالسة على السرير بملابسها الداخلية. وكانت ترتدى قميصاً مخرماً رخيصاً، بمبى اللون، مثل قماش أبيض غمس فى الدم ثم غسل عدة مرات فاحتفظ بلون الدم الباهت. وكانت ساقاها عاريتين. وعلى المكتب استقر فستانها مطبقاً فى عناية. وقالت: لا أريد أن أدخن. هيا بنا. وقلت: نشرب السيجارة أولاً. ما اسمك. وقالت: أريد أن أنتهى. ومدت يدها إلى ساقى وفكت زرار البنطلون. ونحيت يدها ببطء. وقلت: نامى معى الليلة وانصرفى فى الصباح. وضحكت:

كده. وجذبتنى نحوها وحاولت أن تقبلنى، ونحيت فمى عن وجهها. وقمت واقفاً. وخلعت بنطلونى وسروالى الداخلى. وتناولت الجراب وجعلت أرتديه. لكنه تمزق. بحثت عن واحد آخر فوق المكتب، فلم أجد. وقالت الفتاة: أنا نظيفة. وفتحت الباب وناديت على شقيق حسن وقلت: أريدا واحداً. وأعطانى واحداً من جيبه. ولبسته وارتميت فوقها. وحاولت أن تقبلنى فأبعدت وجهى. وقمت أخيراً وارتديت ملابسى. وأخذاها وخرجوا. وبقيت جالساً. وأشعلت سيجارة. وجاء رمزى وقلت له إنى لم أستطع أن أنام مع الفتاة، وسخر منى. فقد استطاع هو. قابل فتاة فى الشارع واصطحبها إلى البيت. وأطفأ النور. وظل معها عشر دقائق. ثم أعطاها خمسة وعشرين قرشاً. وتطلع بعدها إلى وجهه فى المرآة فوجده أحمر. وقال إنه لا يوجد شئ يساوى أى شئ. وانصرف. وجاء العسكرى بعد قليل. وأطفأت النور. ونمت. وفى الصباح خرجت، وأفطرت فى الشارع ولم أشتر الجرائد. وعدت إلى الحجرة. وقالت أختى إن عمى عاد من الإسكندرية وإنه مريض جداً ولا بد أن أذهب لاستقباله. وخرجت وركبت المترو إلى المحطة. ونزلت من المترو وعبرت الميدان، ثم سور المحطة الخارجى. وعلى الرصيف وجدته يقف. وكانت حالته عادية وزوجته إلى جانبه تحمل شمسية فى يدها. وأسرع أولاده يحضرون تاكسياً، وركبوا وقالوا لى أن ألحق بهم فى المنزل. وركبت المترو وذهبت إلى منزلهم، ووجدته جالساً على كنبة مرتدياً بيجامته. وبدا جسمه صغيراً قد انكمش عن ذى قبل. وتأملت كتفيه اللذين تضاءلا فى فانلته، وعينيه الصغيرتين اللتين أوشكتا أن تختفيا خلف نظارته السميكة. وكان بنطلون البيجامة ملوثاً ببقعة صفراء كبيرة فوق الكيس الضخم بين ساقيه. وقال إن كل شئ بدأ فجأة برعشة وسخونة. واستدعوا الطبيب فقال إنه لا يوجد شئ البتة. وقال إن الحرارة ارتفعت فى المساء وظن أنه سيموت، وأرسل إلى الطبيب على الفور، فجاء وقال له: تأكل مسلوق وتحلل. وقال عمى إنه نفذ أوامر الطبيب يوماً واحداً فقط. وفى اليوم التالى قال لهم آكل فرخة. وقمنا لنأكل، وأقبل على اللحم

يلتهمه فى شراهة. وقال: أعطونى من الكبدة. وتركتهم وخرجت. وركبت إلى منزل ابنة عمتى. وقلت إنى سأعرف المنزل من نوافذه الزرقاء. لكنى عندما اقتربت منه اكتشفت أنها ليست كما كنت أتخيل. كان الزجاج عادياً بغير لون. إنما السماء هى التى كانت تعطيه زرقته أحياناً. وكانت الواحه مشروخة. وواجهة المنزل صفراء متسخة. وكان باب الحديقة مفتوحاً ومائلا على الحائط. والحديقة نفسها مهجورة، والبلاط الملون فى ممراتها قد اقتلع فى أكثر من مكان. وسرت فى الممر المؤدى إلى باب البيت. وكان هناك براز كلب بجوار الحائط. وصعدت السلم الذى تآكلت درجاته. وطرقت الباب. وفتحت لى ابنة عمتى. ولم أعرفها فى مبدأ الأمر. فقد كان شعرها منكوشاً تتخلله خصل رمادية كثيرة. وكانت عيناها منطفئتين، وجلد وجهها بنياً. وفى الصالة رأيت الحجرة القبلية. ومشيت إليها وقلت لها: أين مكنة الخياطة التى كنت تضعينها هنا؟ وقالت: ألا زلت تذكر؟

أجل، لا زلت. كان ذلك فى الشتاء. بعد الغداء. وفى الحجرة البحرية جلس أبى مع عمتى خلف زجاج الفراندة يرقبان القصر. وذهبت إليه وأردت أن أجلس على ساقيه. لكنه نحانى عنه قائلاً أنى لم أعد صغيراً. وغادرت الحجرة إلى الصالة. وعبرتها إلى حجرة ابنة عمتى. وكانت تجلس أمام مكنة الخياطة. وجلست أرقبها وهى تدير المكنة بساقها. وقالت لى: تصور .. انقطع الخيط من أول دورة. إنه شيطان الذى ركب هذه المكنة. وانحنت على المكنة بعد أن رمقتنى بنظرة سريعة. وحولت بصرى إلى النافذة وأنا أشعر بأذنى ساخنتين وكنت لا أزال أرى وجهها الأبيض الرقيق والحمرة الشاحبة على خدها وأنا أتطلع إلى النافذة المغلقة. الزجاج فقط هو الذى كان مغلقاً، ومن خلفه ظهرت السماء، وخلاله تدفقت أشعة الشمس الباهتة ... وتحت فى الحديقة كانت أشعة الشمس تضئ فوهة البئر السوداء. وبعد ساعة سيأتى الصبية وأنزل معهم ونرفع الماء بالمضخة. وسنسرق

الزهور ونهز شجر المانجو بلا فائدة. ونجرى فى البدروم والسراديب. وهذه المرة سأختبئ منهم فى الحجرة المتطرفة التى تفتح فى رمضان ليقرأ فيها المشايخ كل ليلة. وعندما ننصرف بالليل ستودعنا عمتى إلى الباب، وتضئ نور السلم، ونهبط درجاته البيضاء العريضة، ونخرج إلى الممر، ونمضى فوق بلاطه الملون. ثم نفتح باب الحديقة فيئز، ثم نغلقه تماماً، وننطلق إلى الشارع العريض الهادئ بلا صوت. وعندئذ أجمع الياسمين من أسوار الحدائق .. وقالت صديقة ابنة عمتى شيئاً. كانت تقف على مقربة أمام مرآة الدولاب وهى تمس شفتيها بإصبع الروج. لكنى لم أنظر ناحيتها. كانت طويلة وعيناها خضراوين. ولم تخاطبنى إلا بكلمة واحدة: ازيك، قالتها عندما دخلت الغرفة. ثم وجهت كل اهتمامها إلى ابنة عمى. لكن ابنة عمتى كانت تكلمنى أنا عندما قالت: تصور. كان دولابها الصغير خلفى، تعلو مصراعيه الخشبيتين مرآتان بيضاوان كالعينين. وتتدلى من منتصفه عند ثقب المفتاح مطرقة صغيرة من النحاس تحدث رنيناً جميلاً عند فتح الدولاب. وفى داخل الدولاب أدراج مغلقة. ودون أن أحرك عينى عن النافذة استطعت أن أرى أصابعها تلمس مقبض المكنة فى خفة، فتدور العجلة فى ضجة. وانحنت تتابع حركة القماش تحت الإبرة فسقطت ضفيرتها على صدرها. وقالت لها صديقتها: ألن تنتهى أبداً. تأخرنا. ورفعت ابنة عمتى رأسها والتقت عيناها بعينى وهى تتطلع إلى صديقتها وقالت: خلاص آخر خط. وأغمضت عينى. وسمعت بعد برهة رنين مطرقة النحاس الصغيرة.

وجاءت أختى وقالت: المجارى فى البلد طافحة. ودخل قريب عجوز لابنة عمتى. وكان يلهث فى قوة. ولم يكن يرى جيداً من خلف نظارته. وتجهم وجه ابنة عمتى. وقال العجوز: أعطنى شلناً بعدما أشرب القهوة. وخلع طربوشه ووضعه بجواره على الكنبة

شرب القهوة وظل جالساً. ودخلت ابنة عمتى حجرتها ثم عادت وسألتنى إذا كانت معى فكة. ولم تكن معى فكة. وأرسلوا الطباخ ليفك عشرة قروش إلى شلنين. وجلسنا ننتظره صامتين حتى عاد. وأعطت ابنة عمتى الشلن للعجوز، فقام وارتدى طربوشه وسلم علينا وخرج. وقالت ابنة عمتى: هذا العجوز ماكر. يلهث فقط عندما يدخل علينا. وقالت أختى إنه يقيم مع ابنه المتزوج. وإن زوجة الابن تحرض أطفالها على تمزيق ملابسه وإخفاء حذائه، وتترك غرفته قذرة. وقالت ابنة عمتى: سيشرب بالشلن خمراً. وقالت أختى: عندما يذهب إلى ابنته تتركه فى الصالة وتدخل حجرتها وتغلق الباب عليها. وقالت ابنة عمتى إنه يقضى النهار كله فى الخارج يشرب الخمر ويدور على أقاربه يشحذ منهم.

فى نفس هذه الصالة منذ أعوام بعيدة كانت عمتى تجلس على الكنبة بطرحتها البيضاء وهى تدخن. وبجوارها أبى لا زال يلهث من السلم والحر وهو يجفف بمنديله رأسه الأصلع الذى يدور به شعر أبيض. وجاء الطباخ وأخرجت عمتى كيس نقودها وأعطته جنيهاً. وانصرف الطباخ. وقال لها أبى شيئاً، فهزت رأسها بالرفض .. وقام أبى فعبر الصالة إلى الحجرة البحرية وخرج إلى الفراندة وجعل يدخن.

وقالت أختى إن نهاد خطبت إلى مدير فى القطاع العام. ورويت لابنة عمتى كيف سألتنى قريبة نهاد عما إذا كنت ابن أبى الشوارب الواقفة، وضحكنا. وقالت أختى إن جدة نهاد مريضة وإنهم لا يطيقونها. وقالت ابنة عمتى: قبل أن تموت أمى ظلت شهوراً فى الفراش لا تغادره، وكانت تتبول فيه. وقالت أختى إن زوجة ابن عمى سقطت فى شهرها السادس. وقلت: هذا أحسن لها. وغضبت أختى واتهمتنى بأنى لا أحس. وقالت إنى الوحيد الذى لن يتمكن من حضور زواجها لأنه سيكون بعد الغروب. وقالت إن صديقتها حسنية ستتزوج بعدها بأسبوع، وسيعود خالها إلى منزله. وقالت إن خال حسنية كان يقيم عندها

طول الوقت بعد أن هجر امرأته. وقالت إن امرأته لا تخلع السواد أبداً، وإنه يقول أن ملابسها الداخلية كلها سوداء. واقترب منى كلب ابنة عمتى وهو يهز رأسه. ومددت يدى أداعبه فنام على ظهره فى الحال وانثال بوله فى الأرض. وقال إنه أصبح هكذا أخيراً. فما أن ينام هكذا على ظهره حتى يبول. وانصرفت إلى حجرتى. وخلعت ملابسى. وأعددت كوباً من الشاى. وجلست أقرأ فى كتاب عن فان جوخ. ولا بد من أنى غفوت. فقد رأيت أنى التقيت بأبى. وكان يبدو متعباً. وجلس متربعاً على سريره، متجهماً. ولم أعرف ماذا أقول له وأنا لى مدة لم أحاول أن أراه. كان موجوداً طول الوقت ولم أفكر فى الذهاب إليه. واستيقظت على صوت جرس الباب. وقمت أفتح. وكان العسكرى. فعدت أحضر الدفتر ووقع وانصرف. وعدت إلى الحجرة فأطفأت النور وأشعلت سيجارة، واستلقيت على السرير أفكر فى أبى.

كان ذلك بالليل. وكان أبى يصرخ من الألم.وكنت أريد أن أنام. وعندما أخذوه إلى المستشفى بقيت بمفردى فى البيت. وكنت سعيداً. وعندما ذهبت إليه اصطدمت بعينيه. وكانتا واسعتين جزعتين. وسألنى لماذا تأخرت. ولم يكلمنى بعد ذلك أبداً. وقال: أقرأ لى. وجلست بجواره على مقعد. وأعطانى ظهره. وأمسكت بمجلة وقرأت له. وبعد لحظة ملت عليه لأرى عينيه. وكانتا مغلقتين. فتوقفت عن القراءة. لكنه فتح عينيه وقال: لم أنته بعد. وعدت أقرأ. وأخيراً قال: يكفى هذا. يمكنك أن تنصرف. وخرجت مسرعاً وأنا أتنفس الصعداء. وبعدئذ لم يطلب منى شيئاً. ولم أر الرعب الذى كان فى عينيه. وعندما أعادوه إلى البيت حملوه من السيارة إلى السرير. وفى بيت أخى استبدلو أغطية المقاعد بأخرى داكنة، ولم أفهم. وعندما أخرج دماء من فمه نزل أخى يبحث عن وعاء. وعاد ينهج ويقول: دخت ولفيت. وارتمى على الكنبة يلهث وهو يتطلع إلينا. وأخيراً رقد أبى على

ظهره فى صورة مستقيمة، وغطوا جسده كله ووجهه بملاءة بيضاء وساووا جسده وقالوا إنه لم يسأل عنى. ورفعت الملاءة عن وجهه ولكن عينيه كانتا مغلقتين.

ونمت. وفى الصباح ذهبت إلى الشقة الجديدة التى ستنتقل إليها أختى فى المساء. كان البيت كله جديداً لا زال العمل يجرى فى بعض طوابقه. ووجدت باب الشقة مفتوحاً وخطيب أختى يقف أمامه. وصحبنى إلى الداخل. وعبرنا الصالة إلى حجرة الصالون. وأرانى صورة كبيرة على الحائط لبيت أوروبى على شاطئ وأمامه قارب. وقال بزهو: إنها رسم أخى. ثم انتقلنا إلى حجرة النوم. وفتحنا أبواب الدولاب الأربعة. وجلسنا على السرير واهتززنا فوقه، وتحسسنا أغطيته ووسائده بأيدينا. ثم خرجنا إلى الصالة وفتحنا الثلاجة ثم أغلقناها. وقادنى إلى الباب وأشار إلى مصباح فوقه وقال: بمجرد أن أفتح الباب يضئ هذا المصباح من تلقاء نفسه، ثم ينطفئ عندما أغلقه. وقال: انتظرنى هنا حتى أذهب وأجئ بالسخان والفرن. وخرج. وجلست فى الصالة المظلمة وأشعلت سيجارة. وقمت وضغطت على زر النور. لكن الكهرباء لم يكن قد تم توصيلها بعد. وتأملت غطاء المصباح الذى كان على شكل قمر صناعى. وعدت فجلست إلى المائدة وجعلت أدخن وأنا أتأمل حواف مقاعدها اللامعة بلا أى خدوش. ووصل السخان بعد قليل لكن خطيب أختى لم يأت. انتظرته مدة أخرى وأنا أدخن. ثم قمت إلى النافذة. ووجدت الشمس تغيب. ثم رأيته يسير فى الشارع بمفرده فى اتجاه المنزل. ولم يكن هناك أحد غيره فى الشارع. وصعد بعد قليل. وصافحته قائلاً: مبروك. وغادرت المنزل إلى حجرتى. فأضأت نورها. ووضعت الدفتر فى جيبى. وجلست فى مقعد وظهرى إلى الباب. وأمسكت بكتاب. وبعد قليل قمت وأدرت المقعد بحيث يكون الباب أمامى. وعاودت القراءة. وبعد لحظة تطلعت إلى الباب من فوق حافة الكتاب. وكانت الشقة غارقة فى الظلام. وحاولت عبثاً أن أواصل القراءة. وقمت وخرجت إلى الصالة. وأضأت نورها. وكانت حجرة جارى مظلمة. وانتقلت إلى المطبخ فأضأت مصباحه. وعدت إلى

حجرتى. وأمسكت بالكتاب مرة أخرى. وطرق الباب فجأة. وقمت لأفتح. وتذكرت أختى. وكانت تقول إنها تشعر عندما يطرق الباب أن أحداً سيدخل ويضربنى. فتحت شراعة الباب أولاً فوجدت العسكرى أمامى. فتحت له الباب. وتناولت الدفتر من جيبى وقدمته إليه. فوقع ثم انصرف. وعدت إلى حجرتى. وحاولت أن أقرأ من جديد، لكنى لم أستطع. وأخذت أتمشى فى الحجرة. ووقفت فى النافذة، كانت كل النوافذ أمامى مغلقة. وخلعت ملابسى وارتديت البيجامة ثم أغلقت باب الحجرة، وتركت النور مضاء فى الصالة والمطبخ. وأشعلت سيجارة واستلقيت على الفراش. وعندما انتهت السيجارة قذفت بها من النافذة. وأعطيت وجهى للجدار ونمت. واستيقظت فجأة وأنا أشعر بصداع حاد وعطش شديد. وغادرت الفراش. وكان الليل لم ينته بعد. وفتحت الباب وذهبت إلى الحمام. وانحنيت على صنبور الماء فشربت. ثم أغلقت الصنبور. واكتشفت أن أرض الحمام غارقة فى الماء. وعدت إلى حجرتى، وكان هناك أصبع موز على المكتب فتناولته ونزعت قشرته ثم أكلته ووضعت القشرة على المكتب. وعدت إلى فراشى. واستيقظت مرة أخرى. وكانت الشمس تملأ الحجرة. وظلت ممداً. ثم قمت وأخذت فرشاة الأسنان والصابونة وذهبت إلى الحمام. ووجدت المياه قد ملأت أرضه وتسللت إلى الصالة. وكان الصنبور تالفاً. ووقفت وسط الماء وغسلت وجهى وأسنانى. وعدت إلى الحجرة تاركاً آثار أقدامى المبللة فى كل مكان. وارتديت ملابسى، وغادرت الشقة ونزلت إلى الشارع. وركبت المترو إلى نهايته. وسرت على الكورنيش. ثم عبرت الكوبرى وولجت أول كازينو صادفنى. واخترت مائدة منعزلة على النيل وجلست. وجاءنى الجرسون فطلبت قهوة. وجعلت أتأمل المياه أمامى. وتابعت ببصرى قارباً به شاب عارى الصدر يجذف. وفجأة سقط منه أحد المجذافين وابتعدت به المياه. وأدار الشاب دفة القارب محاولاً اللحاق بالمجذاف الضائع. وكان يعمل الآن بمجذاف واحد وينقله كل لحظة إلى أحد جانبى القارب. لكن المياه كانت تعاكسه، وكلما أفلح فى الاقتراب من هدفه ابتعد

عنه. وبدأ يجذف بحركات محمومة. وبدا اليأس عليه. وترك المجذاف فجأة وضم راحتيه أمام فمه، وصرخ لزميل له فى قارب بعيداً طالباً النجدة. لكن زميله لم يرد عليه وربما لم يسمعه. ولم تكن القهوة قد جاءتنى. وناديت على الجرسون فلم يلتفت ناحيتى. فقمت وغادرت الكازينو. ومشيت إلى الكوبرى وركبت الأتوبيس. ونزلت فى أول شارع سليمان. وجلست فى أول مقهى صادفنى. وشربت القهوة. ثم أشعلت سيجارة. وقمت فسرت إلى شارع توفيق، ثم انحدرت فى التوفيقية ووقفت أمام سينما كايرو. وكانت تعرض فيلماً كوميدياً. وابتعدت فى اتجاه شارع فؤاد وعبرته. وانحنيت فى شارع شريف. وواصلت السير فعبرت شارع عدلى ثم ثروت. ومضيت فى اتجاه شارع سليمان، ثم سرت فيه حتى الميدان. وكانت مياه المجارى تملأ الأرض. والمضخات منصوبة فى كل مكان تحملها من داخل الحوانيت إلى الشارع. وكانت الرائحة لا تطاق. والتقيت بشخص أعرفه. وقال إنه استيقظ منذ ساعة فقط هو الآخر. وكان يمد ليلحق موعداً. وأسرعت بجواره وقلت: سأمشى معك حتى موعدك. لكنه قال إننا يجب أن نفترق الآن. وتركنى. وعبرت الشارع وعدت فى اتجاه الميدان، ثم انطلقت فى شارع قصر النيل حتى وصلت السينما. تفرجت على الإعلانات التى قالت إن هذا العالم مجنون. واتجهت إلى شباك التذاكر وكان كاملاً. ووجدت شباكاً للحجز والمقاعد كاملة فى حفلتى المساء، والناس تحجز للغد وبعده. غادرت السينما وعدت أسير فى اتجاه الميدان مرة أخرى ثم شارع سليمان. وفى هذه المرة سرت على الناحية التى لم أسر عليها فى مجيئى. وعندما وصلت سينما مترو وجدت بها فيلماً كوميدياً هى الأخرى. وتجاوزتها. ووقفت أمام الأميركين متردداً. وكانت سينما ريفولى على يسارى وأمامها زحام شديد. وتذكرت سينمات شارع عماد الدين. وعبرت الشارع، وواصلت السير فى شارع فؤاد حتى عماد الدين فانحرفت فيه وسرت على اليسار وكان هناك زحام هائل أمام كل السينمات، ولا تعمل قبل ساعة ونصف. ووصلت إلى نهاية الشارع. فمضيت فى شارع

رمسيس واتجهت إلى باب الحديد. وخيل إلى أن أحداً يتتبعنى. ثم قارنت ساعتى بساعة المحطة. واتجهت إلى مقهى فى الميدان عند بداية شارع الجمهورية، فجلست فى الخارج. واختفت الشمس فجأة. وساد لون رمادى. وتذكرت هذه المنطقة منذ عشرين عاماً. ودخان القطارات الآتى من باب الحديد واللون الرمادى فى كل مكان: فى السماء والطرقات والبيوت. وقلت أقوم أبحث عن ذلك المنزل القديم. فربما كانت أمى لا تزال هناك. وقمت بسرعة قبل أن تعود الشمس. كنت أريد أن أقترب من المنزل فى الغيام. وعبرت شارع كلوت بيه. وتركت شارع الفجالة، واخترقت الشوارع الصغيرة التى تصله بالميدان. وأحسست أنى أقترب من مكان البيت. وأن بوسعى أن أخترق عدة شوارع جانبية فأصبح بجواره. لكنى قررت أن أقترب منه من ناحية شارع الفجالة كما كنا نفعل أنا وأبى.

وكنا نأتى بالترام. ونأخذه من الميدان قبل أن يتحول إلى شارع الظاهر. وكنت أحب هذا الشارع الهادئ لأنه كان مليئاً بالأشجار التى تتعانق أغصانها فوقه، فى المنتصف، فتحجب عنه الضوء. وكنت أحب صوت السنجة وهى تشق طريقها بصلابة بين فروع الأشجار. ومع ذلك كان الترام ينطلق بأقصى سرعة، فنترك وجوهنا لهواء العصر. ويضع أبى يده على طربوشه كى لا يطير. ثم ينتهى الشارع، وينحنى الترام دالفاً إلى الميدان الواسع ويبطئ من سرعته، ثم يتوقف أمام الجامع. وأتطلع إلى الحديقة الكبيرة التى تنحدر إلى أسفل حتى تختفى عن أنظار الجالس فى الترام. وخلال الأقواس الحجرية الكبيرة فى جدران الجامع أرى الأردية الحمراء والزرقاء للأولاد والبنات الذين يلعبون فى الحديقة. وتظل عيناى عليهم، والترام يعاود السير ويدور حول الجامع. ثم يختفى الجامع بحديقته مرة واحدة. ويضع أبى يده القوية على ركبتى العارية ليحمينى عندما يستدير الترام فى حدة. ونعبر شارع الخليج الضيق. وأتمنى لو كان الترام الذى نركبه هو ترام

الخليج لنمضى بين جانبى الشارع المتقاربين.ويمد أبى يده فيكاد يلمس جدران المنازل. ثم نهبط فى الفجالة. ويمسكنى أبى بيده اليمنى حتى نعبر الشارع، ثم ننطلق فى طريق ضيق، ونمشى إلى جوار جدار أبيض عال تتدلى فوقه أغصان الأشجار. ويظلم الشارع فجأة رغم أن الشمس لم تختف بعد. وأدرك السبب عندما أتطلع إلى أعلى وأرى سحب الدخان الكثيف تتجمع بسرعة ثم تتبدد بعد لحظة. ويقول أبى إنه دخان القطارات قادماً من باب الحديد. وينتهى الشارع، ويظهر المنزل الذى نقصده. ويجلس أبى على دكة البواب بينما أصعد السلم الطويل ماراً بأبواب تتصاعد منها رائحة الزيت المقلى. وفيما بعد نعود أنا وأبى من نفس الطريق الضيق، سائرين إلى جوار الجدار الأبيض. وعندئذ ألمح الأجراس الضخمة من خلفه. ويكون الشارع قد أظلم تماماً وخلا من المارة. وتتبدى فى نهايته بقعة من الضوء، سرعان ما تتكشف عن حانوت سجائر. ونقف فى المدخل الذى تسده فاترينة كبيرة عالية. وألصق وجهى بزجاجها الذى اعتمت بعض أجزائه. وأحدق فى علب الحلوى والشكولاتة. وبجوار رأسى ألمح يد أبى تمتد إلى الجيب العلوى لبنطلونه فتخرج نقوداً ثم تدحرجها فوق الزجاج، عند رأسى تماماً. ثم نترك الحانوت ونعبر الشارع إلى موقف الترام. وأشعر بالبرد، فألتصق بأبى. ويبسط هو ياقة سترته ليغطى صدره. ونقف وحدنا على رصيف المحطة. ثم يأتى الترام فنصعد إلى العربة الخلفية المكشوفة، وننكمش فى ركنها وقد أمسك أبى ركبتى العارية بيده الدافئة. وينطلق الترام فى رحلة العودة، ولا نلبث أن نعبر شارع الخليج. ثم ينحرف الترام فجأة إلى اليمين، ويختفى صف المنازل الذى كان يجرى معنا على الشمال، وينبسط أمامنا فضاء واسع مظلم أخاف أن أقع فيه، فأتشبث بأبى. وبعد لحظات تألف عيناى الظلام، فأتبين الميدان الكبير وكتلة الجامع وسطه. ويدور

الترام حول الجامع ونتخطى سينما مغلقة كنا نذهب إليها فى الصيف مع أمى. ثم نندفع فى شارع الظاهر الملئ بالأشجار. وأسند رأسى على الحاجز الخشبى لأستمتع بسرعته الخارقة هنا. وألمح أبى يغلق عينيه فى مواجهة الهواء الذى يهاجمنا بعنف.

ومشيت مع الترام حتى الكنيسة. ودخلت الشارع المجاور لها. وكان مزدحماً مليئاً بالضجيج. وانتهى الشارع. وانحرفت إلى اليمين. كان البيت الذى أذكره عالياً جداً، له بلكونات خشبية عريضة، ألقت أمى بنفسها من إحداها ذات مرة، فسقطت فى البلكونة التالية. وطفت بعينى بين البيوت. كانت كلها واطئة. لكن واحداً منها فقط كانت له بلكونات خشبية. وقلت لا بد أن يكون هو، فاقتربت منه فى بطء. كانت البلكونات صغيرة والمدخل ضيقاً. والمدخل الذى أذكره عريض. واجتزت المدخل وصعدت السلم فى بطء. وانتهيت من السلم بأسرع مما توقعت. وكانت هناك حجرة صغيرة فى قمته. طرقت الباب. وسمعت صوتاً نسائياً يقول: ادخل. ودفعت الباب. ووقفت فى المدخل. كانت هناك ثلاث سيدات متشحات بالسواد تربعن على سرير فى الركن. وقامت واحدة منهن وأسرعت ناحيتى وهى تقول: مين؟ وعرفت فيها جدتى. وقلت لها اسمى فى صوت خافت. فاحتضنتنى وقبلتنى فى خدى. وقالت: اجلس. وجلست على مقعد خشبى فى مدخل الحجرة. وأشارت جدتى إلى أصغر السيدتين وقالت: هذه خالتك. وتقدمت خالتى منى وقبلتنى فى خدى. وقالت جدتى: وهذه خالتى أنا وأشارت إلى السيدة الأخرى. وقمت، وحملت المقعد، واقتربت منهن. ثم وضعته بجوار السرير وجلست فوقه. وقالت خالة جدتى: مسير الحى يتلاقى. وقالت جدتى: ساعة ما شفتك حسيت. وقالت خالتى: لسه كنا بنقول يمكن بنقابلهم فى الأتوبيس من غير ما نعرفهم. وتناولت جدتى الترانزيستور وقالت: جاء ميعاد الرواية. وأعلن صوت رصين فى الراديو عن إحدى حلقات الشبح الأسود. وبدأت الحلقة بصبى يسأل فى صوت باك: كيف يستطيع الحياة بعد أن علم أن أباه هو

القاتل. وجلست أستمع فى صمت. وأبصارهن جميعاً معلقة بالراديو. ومضت ربع ساعة. وانتهت الحلقة، وقامت جدتى لتصلى. وجاء أطفال صغار. وقالت لهم خالتى: هذا ابن خالتكم الله يرحمها. ونظرت إلى بطرف عينها. ولم أتكلم. كنت أريد الآن أن أعرف متى ماتت أمي على وجه التحديد وأين. وفرغت جدتى من الصلاة، وجاءت فجلست بجوارى. قلت لها: متى ماتت أمي بالضبط. وقالت: غداً يكتمل أول أسبوع عليها. وقلت: أين. قالت: عند أبيها. وأشرت إلى رأسي وقلت: وكيف حالها. وقالت خالة جدتى: كانت تقرأ الصحف وتتحدث فى كل شئ أحسن منا، وتتنبأ بكل ما يحدث، ولم تكن تثور. وقالت جدتى: ثم مرضت فجأة ورفضت أن يراها الطبيب، أو أن تأخذ دواءً ما. وأخذت تهزل شيئاً فشيئاً، ثم امتنعت عن الطعام نهائياً. وقالت خالتى: وفى آخر يوم طلبت كوب ماء، وعندما شربته سقطت ميتة. وتطلعت فى ساعتى كان موعد العسكرى يقترب. وقمت واقفاً. وقلت يجب أن أذهب الآن. وودعتهن. ونزلت السلم. وغادرت البيت. واخترقت الشوارع الجانبية حتى ميدان رمسيس. ثم اتجهت إلى محطة المترو.

مصر الجديدة

1965

الثعبان

هكذا بدا الطريق فجأة. وكان ذلك عندما أبطأ السائق من سرعة السيارة، وانحنى على مقودها فى توجس، ومضى يصعد بها المرتفع ثم يدور مع الطريق وهو يطلق نفيره فى صوت حاد. لم يكن هناك من شبح لكائن واحد على مبعدة عشرات الأميال فى كل اتجاه. وما كان أحد ليتوقع غير ذلك فى هذه الصحراء المترامية النائية. ومع ذلك كان على السائق أن يحذر المفاجآت عند كل منحنى أو مرتفع.

وحبس الطبيب أنفاسه وهو يتطلع من النافذة إلى الصخور الضخمة كالقلاع التى برزت. على كل جانب. وخفت الضجة ثم تلاشت داخل السيارة، وقد انحنى كل الركاب على النوافذ يتأملون فى جزع الهوة الضخمة التى تهبط على جانب الطريق مباشرة. وعند المنحنى كانت السيارة قد ازدادت بطئاً حتى أوشكت على الوقوف. ومضت تتقدم فى خطوات بطيئة كالزحف. وكانت هناك أعمدة خشبية قصيرة طليت باللونين الأحمر والأسود وثبتت على حافة الطريق تحذر من الهاوية. وكان اثنان من هذه الأعمدة ملقيين على الأرض. وتجاوزت السيارة المنحنى وانحدر الطريق إلى أسفل. فاعتدل السائق فى مكانه وترك

السيارة تنساب هابطة دون أن يغير سرعتها. فقد كان هناك منحنى آخر. ودار الطريق من جديد صاعداً. والتمعت الشمس على الصخور الضخمة وبدت كتلها مزعجة. ولوى الطبيب عنقه إلى الوراء ليتأمل الجزء من الطريق الذى خلفوه وراءهم. وإلى أسفل كان الطريق الطويل الضيق يمتد وسط الصحراء فى شريط أسود لا نهاية له، ويلتوى على نفسه ويدور صاعداً وهابطاً فى دوائر. وأحس بأنفاس الراكب الجالس خلفه تصطدم بقفاه فى دفقات قصيرة متلاحقة، ثم سمعه يهمس بصوت خافت: "ياه .. زى التعبان".

وعندئذ أخذ كل شئ يبدو كشئ آخر. وقبل ذلك لم يكن هناك غير الضجر بالساعات الأربع التى تستغرقها الرحلة حتى أسيوط. وكان الطريق فى البداية يمتد مستقيماً، والصحراء تنبسط يميناً ويساراً إلى ما لا نهاية دون أن يعترضها مرتفع واحد. فلم تكن الجبال إلا خطوطاً بعيدة فى الأفق. ولم يكن هناك ما يوحى بأن جغرافية المكان ستتغير فرحلة المجئ كانت بالليل الذى أخفى تفاصيل الطريق، ولم تتكشف حقيقته إلا عندما بدأ ينثنى ويدور صاعداً هابطاً ويتلوى ويتموج منطلقاً إلى الأمام كالثعبان.

لم يكن هناك من طير أو حيوان أو إنسان فى أى ناحية. لم يكن هناك غير الرمال والصخور. والأعمدة التى تتتابع فى سرعة خاطفة على جانبى الطريق، بعضها يحمل إرشادات للسائق، والبعض الآخر يحمل أرقاماً مختلفة فشل الطبيب فى أين يحدد أيها يعين المسافة المتبقية على أسيوط. والبعض الثالث كان أقرب إلى شواهد حجرية صغيرة تحمل أرقاماً مطموسة وتبدو كالتماثيل الحجرية القديمة لفلاسفة اليونان والرومان التى تظهر صورها فى الكتب والمجلات.

وإلى اليسار كانت أعمدة التليفون التى تربط الواحات بأسيوط تجرى مع السيارة. كان عمود منها تسنده أسلاك متينة تثبت إلى الأرض بأثقال من الأحجار حتى لا تجرفها رياح الصحراء العنيفة. وفى بعض الأحيان كان العمود ينتصب مجرداً من الأسلاك أو مثبتاً

بسلك واحد. وكان العمود ساقاً رفيعة من الخشب يعترضها قضيب صغير فى قمتها، فيبدو كالصليب. وكانت مئات من هذه الأعمدة بل آلاف تتسابق أمام الطبيب فى خط مستقيم على اليسار. وبدت له أشبه بصلبان أعدت ليعلق فوقها متمردون ثائرون. يُعلق الواحد منهم من يديه. ويُلصق ساعداه بالقضيب الأفقى، ويُدق فى كل كف مسمار طويل. ويُربط الجسد بالعمود بحبل متين كى لا يقع الثقل كله على اليدين. وتنزف الدماء من اليدين، ثم من الأنف والفم. ثم تتصاعد رائحة نتنة تجذب الذباب والصقور والذباب. وتتدلى الرأس عاجزة خائرة: العينان مغلقتان ولكنهما تطرفان بين الحين والآخر بنظرة حائرة تتجمع فى أعماقها قوى خفية تجاهد لتتبين أو تدرك شيئاً ما. وربما تتحرك الشفتان أيضاً وتطرفان مثل العينين. لكن أحداً لن يعرف أبداً ماذا أراد صاحبهما أن يقول.

وكان الطبيب قد قرأ فى مكان ما من قبل عن الصلبان التى أقامها الرومان فى إحدى الطرق المؤدية إلى روما منذ ألفى سنة، وعلقت فوقها أجساد ستة آلاف عبد. وكان أولئك العبيد قد ثاروا وقاتلوا ثم هُزموا وظلت أجسادهم المصلوبة مصدر متعة ولذة لأحرار الرومان بعض الوقت أما الصلبان فلم تشبع أبداً منذ ذلك الحين: كان الرومان قد نقلوها عن مستعمراتهم ووُجد من نقلها عنهم بعد ذلك. وخطر للطبيب أن الصلبان كانت متقاربة بلا شك كهذه الأعمدة، وأنه لا يزال هناك من يستمتعون بمنظر الدماء والصلب. ولا يزال هناك أيضاً العبيد الذين يثورون ويقاتلون ويهزمون. مثل الرجال الذين جاؤوه بهم عندما كان طبيباً فى السجن. ووقفوا أمامه فى سكون وقد تدلت رؤوسهم وعروا صدورهم وظهورهم، فبدت جراحهم كأنما أنزلوا لتوهم من فوق الصلبان قبل أن تنهشهم الطيور الجارحة.

كانت الصلبان تسابق السيارة. تسرع إذا أسرعت. وتبطئ إذا أبطأت. والأسلاك التى تصل بينها تهتز بين الحين والآخر إذا هبت الرياح. لكن الهواء كان قد أصبح عزيزاً. وتوهجت الشمس. وبدأ السائق يبطئ من سيارته قليلاً. كان يجلس فى هدوء دون أن يعبأ

بشئ حوله. ولا بد أنه كان يحس بملل فظيع. فأى لذة فى أن يظل رائحاً غادياً فى هذا الطريق الطويل الذى لا يتغير به منظر واحد. أعمدة التليفون هى هى، والصخور وأرقام الكيلومترات والاستراحتان الخاليتان وسيارة النقل التى أوقفها صاحبها على جانب الطريق ونام فوقها. وهذه الخيمة الوحيدة ... لم يكن بها من أثر للحياة. كأنما هجرها أصحابها فجأة لسبب ما. أو افترستهم الوحوش ولم تترك منهم شيئاً. لكن شخصاً ظهر فجأة على باب الخيمة عندما اقتربت السيارة منها. كان يرتدى ملابس الجنود وعلى رأسه بيريه أزاحه إلى الخلف. وظهرت قطرات عرق على وجه وعنقه. وعندما فتح سترته بدت منها فانلة متسخة. وكان يحمل دفتراً صغيراً فى يده. وتقدم على مهل من السيارة التى توقفت تماماً. واتجه إلى باب السائق وقد تقلصت ملامح وجهه فى ضيق. وأدرك الطبيب أنها نقطة مرور. وعلى باب الخيمة ظهر جندى آخر يحمل بندقية فى يده ولا يرتدى شيئاً فى قدميه. ووقف يتطلع إلى السيارة فى غير مبالاة وعيناه تدوران بنوافذها تبحثان بلا شك عن وجه امرأة يرطب قليلاً من جفاف الصحراء. وفكر الطبيب أنه لا يوجد أحد غير هذين الجنديين هنا. وحاول أن يتصور كيف يقضيان الوقت طول النهار وطول الليل. وكيف يحصلان على طعامهما. وخطر له أنهما لابد يقاسيان الليل. فبرد الصحراء مثل حرها لا يطاق. ولابد أنهما ينامان أيضاً متجاورين. وربما شعر أحدهما بالبرد والوحدة ذات ليلة فألتصق بزميله. ففى الليل – عندما يشتد البرد وتعجز الأغطية القليلة عن مقاومته وعندما تبدو السماء هائلة صامتة وتعوى الذئاب والوحوش التى لم يرها أحد – عندئذ لا تعرف ماذا يمكن أن يحدث.

وكان الطبيب يستطيع أن يتتبع الشعور بالبرد والوحدة فى أى إنسان. وربما كان السبب فى ذلك أنه قضى شطراً كبيراً من حياته العملية فى السجون.ففى تلك المبانى القاتمة – الصفراء من الخارج المظلمة من الدا خل – ترى كل شئ عارياً. وعندما كان السجناء يأتون إلى غرفته ليوقع عليهم الكشف كان يتأملهم فى فضول. كانوا مساكين جداً، مرضى وعواجيز

ومحطمين. لا تستطيع أن تميز بينهم بملابسهم الزرقاء المتشابهة ووجوههم اللامبالية. بعضهم مريض فعلاً وقاسى كثيراً حتى وصل إليه والبعض الآخر يحشد كل ما أوتى من دهاء ليفوز منه بكوب من اللبن أو قطعة لحم أو بطانية. لكن الطبيب كان يرى الخوف والألم على وجوههم جميعاً.

وفى البداية – عندما كان شاباً مليئاً بالحيوية وعندما كان كل شئ يبدو بسيطاً واضحاً كما كان الطريق يبدو هذا الصباح قبل أن يتلوى ويتعقد ويتموج كالثعبان – كان يظن أنه يستطيع أن يقهر الألم. لكنه كان واهماً. فقد كان الألم كالسرطان تستأصله من مكان فيظهر على الفور فى مكان آخر. وأصبح يستيقظ من نومه كل ليلة صارخاً بعد حلم واحد لا يتغير. وفى هذا الحلم كان يرى نفسه جالساً إلى مائدة صغيرة وسماعته معلقة فى رقبته وخلفه سجين يحمل إناء به سائل أحمر أدرك أنه دماء. وكان يغمس أصابعه فى هذا الإناء بعد كل كشف. وعلى جانبيه يقف عملاقان كالحراس فى ملابس التمريض البيضاء. وهو تحتهما ضئيل جداً. وأمامه صفوف من السجناء يقتعدون الأرض لكنهم لا ينظرون إليه. فبصرهم معلق بأحد العملاقين الذى يلوك شيئاً بين أسنانه وقد شردت عيناه وتبدت ملامح وجهه غاضبة شرسة تنذر بأنه قد يعود إلى وعيه مزمجراً فى أية لحظة. ويأتى المتعهد السمين باللبن – الذى يشربه مرضى السجن – كى يفحصه الطبيب. ويضع الرجل إناء اللبن أمامه ثم يصب فيه دلواً من مياه الغسيل القذرة. ثم يدخل آخر حاملاً الذبيحة التى سيأكل منها السجناء، ويقربها منه ليفحصها، ويريه وهو يبتسم الأجزاء المهترئة المريضة ثم يحملها وينطلق إلى الداخل. أما هو فيلوح بيديه ويود أن يصرخ ويحتج ويرفض ويهدد، لكن الصوت يحتبس فى حنجرته ويتخبط هناك ناشباً أظافره فى سقف الحلق.

ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا إلى الأبد فقد كان شيئاً يحطم الأعصاب.

وكانت أعصابه هادئة الآن. لكن معدته كانت قد بدأت تضطرب من أثر المطبات.

فرغم أن الطريق مضى على شقه ورصفه أقل من عامين إلا أن الرصف أصيب بالتلف فى أكثر من موضع. وفكر الطبيب أن شق الطريق لم يكن بالأمر الصعب. فقد كانت الصحراء منبسطة كالسهل إلا فى مكان أو اثنين. وكانت السيارة تقترب الآن من أحد هذه الأماكن الوعرة. وهو شبه نفق وسط جبل تبدو عليه آثار عمل حديث. فلم يكن هناك شك فى أن الأيدى والآلات هى التى شقت هذا النفق وسط الجبل. كان السفحان قريبين جداً بصخورهما الحمراء. وسارت السيارة ببطء فى النفق، فاصطبغ الجو كله باللون الأحمر. وعاد السائق ينحنى على المقود فى توجس. وتطلع الركاب من النوافذ فى رهبة إلى الصخور الضخمة المعلقة على السفح على بعد ذراع كأنها موشكة على السقوط بين لحظة وأخرى.

وكان الطبيب يتأمل السفح والقمة فى فضول وترقب كأنه يتوقع أن تبرز رؤوس ملونة تصرخ وتهجم عليهم كالجراد، وتمطرهم بالسهام المسممة كما يحدث فى الأفلام. أو ينطلق الرصاص فجأة من كل مكان يصوبه أعداء مجهولون يتربصون. ولم يخطر للطبيب أنه يحلم أو يتخيل، فقد كان يعرف أن شيئاً مثل هذا يحدث فى الناحية الأخرى من الصحراء عبر البحر. وربما فى هذه اللحظة بالذات كان هناك جبل مثل هذا الجبل. له صخور وتجاويف وكهوف يختفى فيها القتلة. وربما كان هناك جندى يجلس على حافته. ومن خلفه يتسلل عدة رجال أنصاف عراة يحملون الخناجر ولا يعرفون شيئاً غير القتل، ويهجمون على الجندى فى صمت وتنهال عليه الطعنات. ويتدحرج على التراب ودماؤه تترك خطاً أحمر من خلفه، سرعان ما يتجمد ملتحماً بالتراب ويتدحرج بسرعة، والغبار يرتفع فوقه حتى يستقر فى القاع. وفى أعلى يستمر القتال الوحشى، ثم يتوقف بعد أن يتحقق النصر، ويبدأ التعمير. وتشق الطرق. وتبنى المصانع. وتقام دور السينما. وتؤلف أغانى الحب وتذاع من الراديو. ولن يسمعها الجندى القتيل، ولن يرى شيئاً من هذا كله، فهو لن يبارح مكانه أبداً فى الصحراء.

وفى الصحراء كان يركب السيارة متضجراً من الحر والملل. وكانت ساعته تقول إن

السيارة قطعت نصف المسافة. وكان يفكر أنه كان يجب أن يحضر معه راديو صغير يتسلى به. وفى القاهرة كانوا يأكلون الجلاس ويشربون أكواب المانجو المثلجة ويتفرجون على التلفزيون. ومن جديد مروا بسيارة نقل انتحت جانباً من الطريق وتكوم سائقها على ظهرها وراح فى النوم. وأمامه كان يجلس شابان أنيقان. وكان أحدهما يعتقد أن الطريق الذى يمتد أمامهما وسط الرمال يذكره بطريق الإسكندرية. وكان ذلك رأى الثانى أيضاً الذى وقعت له حوادث عجيبة فى ذلك الطريق عندما كان يعبره بسيارة صغيرة اسمها كيكى. وإلى جوار الطبيب انكمش راكب ضئيل الجسم فوق مقعده الذى يعلو غطاء عجلة السيارة وتضاءل فى مكانه. وكان غارقاً فى التفكير كأنه يحسب حسبة حياته. ولا بد أن أفكاره لم تكن مشجعة. وليس هذا بغريب، فعندما يكون المرء وسط الصحراء والعرق يتصبب على وجهه والطريق أمامه لا تبدو له نهاية وعضلات فخذيه تؤلمه وأعصابه بدأت تئن وهو يتقلب فى مكانه بحثاً عن ناحية يمكن أن يرتاح عليها – وأيضاً عندما يكون قد تجاوز الأربعين – عندئذ لا يمكن أن تكون أفكاره وردية. وفى هذه اللحظة يتمثل له الموت نهاية لكل شئ.

وعند أى طبيب يكون الموت شيئاً مألوفاً. ولو أنه يبعث على التفكير أحياناً. وهذا ما حدث بالأمس. فعندما كان يتجول فى أنحاء مستشفى الواحات وهو ضيق بالذباب والغبار، كان يفكر فى أن الموت هو مصير كل منا. وأى مريض لا يضيره أن يموت اليوم قبل غد، ما دام ذلك سيحدث بالتأكيد فى يوم ما. وكانت هذه الفكرة بسيطة ومغرية. وكان معناها أن ينهى هذه المهمة الثقيلة بسرعة ليلحق بحجرة المحافظ المكيفة الهواء.

وكان هذا أمراً سهلاً. وفى الأعوام الأخيرة لم يكن بذى بال على الإطلاق. فيكفى أن تجعل داخلك بارداً لا يهتز وأن لا تعبأ لكى يبدو كل شئ يسير ويمر ببساطة. كانت الأرض قذرة لم تفلح جرادل المياه التى صبت فوقها على عجل فى إزالة قذارتها. وكان المرضون يرتدون أردية بيضاء ناصعة، لكنه كان يعرف أنهم سيخلعونها عندما يوليهم

ظهره. وكانت الملاءات التى تغطى الأسرة نظيفة. ولكنه كان يستطيع أن يتصور ما يختفى تحتها. لكن ذلك لم يكن بذى أهمية، فيكفى أن كل شئ يبدو على ما يرام وأنه يستطيع أن ينصرف على الفور.

وكان المرضى يرقدون فوق أسرتهم فى ملابسهم المتماثلة التى تقارب لون وجوههم صفاراً. وكانوا يتابعونه بنظراته. ولولا عيونهم هذه لخالهم جثثاً خالية من الحياة. ومن نظراتهم أدرك أنه لا يجب أن يعطى أحدهم فرصة وإلا لما انتهى. ولهذا التزم جانب الممر الرئيسى وسط الأسرة وتحاشى أن تلتقى عيناه بأحد منهم. فكان يدير ظهره لهم. ويرفع عينيه إلى السقف، ويضع يديه فى جيوبه، ويحنى رأسه إلى الأمام ليتأمل شيئاً ما على البلاط العارى. لكنه كان دائماً يشعر بالعيون مسلطة عليه، قوية مسيطرة تشده رغماً عنه، وتجبره على أن يتحول إليها ويواجهها مبهوتاً. كانت فجوات واسعة غائرة لكن شيئاً غريباً كان يتجمع فى أعماقها. شيئاً يشد ويأسر ويكبل. شيئاً قديماً مألوفاً لا يمكن تجاهله.

◎ ◎ ◎

استرخى الطبيب فى مقعد السيارة ومضى يتطلع من النافذة المواجهة التى جلس السائق أمام لوحها الأيسر. كان يعرف أن الثعبان يمتد من الخلف. فمن أمام لم يكن هناك شئ. ولم يكن يبدو من الطريق أكثر من عدة خطوات. فقد كانت الصحراء تخفيه فى عناية ولا تكشف عنه إلا جزءاً جزءاً. وكان الطريق يصعد أحياناً فلا يرى منه إلا خطوة واحدة. ويضغط السائق على نفيره محذراً، وعندما يتلاشى المرتفع ينبسط الطريق خالياً تماماً. ويوشك الطبيب أن يبتسم من الخدعة التى تتكرر دون توقف، وتجوز على السائق فى كل مرة. أما من الخلف فقد كان الثعبان يلتوى بوضوح تاركاً ذيله بعيداً بُعد الواحة. أما الرأس فكانت تزحف إلى الأمام بسرعة محمومة، تشرئب بعنقها فى شوق ولهفة لترى ماذا بعد. وتبدو الجبال فجأة وكأنها تسد الطريق. ويتساءل الطبيب لحظة أين سيمضى السائق وكيف

سيفلت. لكن رأس الثعبان لا تلبث أن تشق طريقها بمعجزة فى مكان ما بجوار الجبال.

وكان الطريق خالياً إلا من المطبات. وكانت السيارة تنطلق بسرعة وخفة. وأرقام الكيلومترات تتابع. فقد استطاع الطبيب أن يحل لغز هذه الأرقام ويعرف أيها يشير إلى ما تبقى من مسافة. وكانت المسافة الباقية على أسيوط لا تتجاوز الخمسين كيلو متراً. وران الصمت على السيارة، وأسند بعض الركاب رؤوسهم إلى ظهور المقاعد المواجهة لهم واستغرقوا فى النوم. وبلغ الضجر بالطبيب القمة. كانت عيناه مشدودتين إلى الأرض التى تتموج من النافذة. وعند كل انحناءة أو مرتفع كان يمنى نفسه بأن تظهر بعدها منازل أسيوط ومبانيها. ولكنه يفاجأ برمال ومرتفعات جديدة. وبدا الطريق بلا نهاية. وازداد الكيلومتر طولاً. وأصبح ينتهى بشق الأنفس. وظل رقم الأربعين ثابتاً لفترة طويلة. وقرر الطبيب فى النهاية أن يتجاهل هذه الأرقام ولا يتابعها ببصره وذهنه، وأن يفكر فى شئ آخر يقطع به الوقت. وعندئذ ظهر الخط الداكن الطويل.

كان يمتد بعيداً فى الأفق، ولكنه كان يقترب بسرعة. وفى البداية كان أشبه بسحابة كثيفة فى السماء البعيدة. ثم ما لبث أن بدا أقرب إلى الأرض منه إلى السماء. واستدار الطبيب قليلاً إلى الراكب الذى يجلس خلفه كأنما يسأله رأيه. وتبرع ذلك بالإجابة على الفور فقال وهو يتنهد فى ارتياح: "أسيوط".

كانت السيارة الآن لا تكاد تلمس الأرض. ومر به رقم الكيلومتر فوجده الثلاثين. وأخذ الخط الداكن يتضح لحظة بعد أخرى فيتحول لونه الغامض إلى خضرة كثيفة تقترب بسرعة. ورأس الثعبان تميل كل لحظة إلى اليمين واليسار مع دورات الطريق وهى تتجه إلى الخضرة فى إصرار. وبدأ الركاب يفقدون استرخاءهم ويعتدلون فى أماكنهم، متطلعين فى اهتمام وارتياح إلى الحقول البعيدة. وكانت تلك هى اللحظة التى ظهرت فيها الألواح البيضاء الكبيرة التى صفت بشكل مائل بحذاء الحقول. وانحنى الطبيب إلى الأمام وهو

يتابعها ببصره متسائلاً عن أمرها. وتبين بعد لحظة مبانى حجرية كبيرة كالمصاطب بعضها من عدة درجات مثل هرم سقارة المدرج. ولم يكن عددها كبيراً. وكانت متناسقة الأحجام متساوية الجوانب مصقولة الحواف. أو هكذا بدت من بعيد. وكان بعضها يحمل خطوطاً وأشكالاً ساذجة باللون الأحمر كتلك التى يرسمونها على بيوت الحجاج فى القرى والأحياء الشعبية من المدن ويكتبون عليها بخط ردئ: حج مبروك وذنب مغفور.

وتململ الطبيب فى مكانه حائراً. وقال الراكب الذى يجلس خلفه وكأنما أدرك حيرته: "جبانة أسيوط".

ارتسمت ابتسامة واهنة على شفتى الطبيب. وفكر أنه لم ير مثل هذه المقابر من قبل على كثرة ما زار من قرى ومدن. ودارت السيارة إلى اليسار، وقد تضاءلت سرعتها، وبدأت تعبر جسراً حديدياً. وظهر الناس فجأة فى كل ناحية وكأنما انشقت عنهم الأرض. وأخذ الفلاحون يتطلعون إلى السيارة وركابها فى دهشة كدأبهم دائماً. وسار ثلاثة طلبة صغار السن فى نشاط على جانب الجسر وقد شمروا أكمامهم وضغطوا على كتبهم. وتابعهم الطبيب فى أسى. وعبرت السيارة الجسر وتحولت إلى شارع عريض تظلله الأشجار. وانسابت مساه النيل على اليمين عميقة رحبة. لم تكن الرحلة قد انتهت، فلا زالت هناك بضعة كيلومترات على المدينة. لكن الطريق الثعبانى كان قد اختفى. وعندما استدار الطبيب إلى الخلف ليتأمله لم يعثر له على أثر. فقد كان إذ ذاك مدفونا فى رمال الصحراء. وبالمثل لم يتبين المقابر الغريبة. فقد كانت أشجار الكافور الضخمة العالية تحجب كل شئ خلفها. وكانت صفوف من هذه الأشجار قد شرعت تجرى مع السيارة وتسابقها.

سجن المحاريق

بالواحات الخارجية

1963

أرسين لوبين

اقتربت من الدكان فى تردد. وعندما أصبحت أمام الباب اختلست النظر إلى الداخل فوجدت ما كنت أتوقعه. كان الرجل ممدداً على مقعد قديم وقد كشف جلبابه عن عظمة ساقه المنتفخة. وكان يتنفس بصوت مرتفع.

وقفت عند الباب لا أدرى ماذا أفعل. وأمامى إلى اليسار كان الرفان الصغيران اللذان كنت أحلم بهما طوال الأيام الماضية، وفوقهما عشرات من روايات الجيب الرفيعة. بل مئات. كان بينى وبينهما خطوة أو خطوتان. لكن الرجل كان نائماً، رغم أننا لا زلنا فى الصباح. وكنت أخاف أن يستيقظ فجأة ويرانى. وفى نفس الوقت لم أكن أستطيع الانصراف. لم أكن أستطيع أن أتصور نفسى طول اليوم بدون رواية. وخطوات إلى الداخل.

ناديته وأنا أضع يدى فى رفق على ساقه المنبعجة. وتوقف صوت تنفسه على الفور. واهتز جسمه قليلاً. ثم انفرجت عينه اليسرى عن دائرة حمراء. وانفرجت شفتاه عن زمجرة.

قلت له وأنا أشير بأصبعى إلى الروايات "حادور على رواية".

انطلقت زمجرة ثانية من فمه. وخيل لى أنه سينقض على ويحطمنى. لكنه اعتدل جالساً وهو يتنهد. وجعل يمسح رقبته بمنديل متسخ. وتطلعت عيناه الحمراوان إلى بكل سعتهما،

فابتعدت عنه. وعندما ظل صامتاً، اتجهت إلى الرفين فى بطء ووقفت أمامهما أقلب فى الروايات.

كانت الروايات قديمة، اختفت أغلفتها، واسمرت صفحاتها وتمزقت. وكان التراب يتصاعد منها ممزوجاً برائحة غريبة كانت تأتى من كل شئ فى الدكان.وكنت أحب هذه الرائحة.

استعرضت المجموعة فى سرعة مكتفياً بالنظر إلى الصفحة الأولى بحثاً عن سطر من كلمات صغيرة أسفل العنوان. وانتهيت من الصف الأول دون أن أعثر على بغيتى. وشعرت بالضيق. وبدأ العرق يتصبب على وجهى. واختلست النظر إلى الرجل وأنا أخشى أن يزمجر أو ينفجر فى. لكنه كان ينظر إلى بعينيه الحمراوين فى صمت.وقال فجأة: "مافيش أرسين لوبين".

توقفت يداى. كان لا يزال أمامى رف بأكمله. وخيل إلى أنه يود التخلص منى. فقررت أن أستأنف البحث. وواصلت التدوير بسرعة فائقة.لكنى لم أجد رواية واحدة لأرسين لوبين. وغالبت شعور الضيق الذى تملكنى وعدت أقلب الروايات من جديد على مهل. كنت أريد الآن أى رواية بوليسية عادية.

زهرة الموت قرأتها. الجريمة الكاملة أحضرها أبى إلى البيت من قبل. اللغز الصينى. كانت أول رواية لأرسين لوبين أقرأها. العيون الثلاثة لموريس لبلان. نفس مؤلف أرسين لوبين لكنها ليست عنه. وأخذت فيها مقلباً من قبل. لو تكون هناك رواية لأرسين لوبين فاتت على فى البحث الأول. إعدام فى الفجر. تبدو كمأساة وأنا لا أحب الروايات المفجعة. الحب العظيم. ولا أحب الروايات الغرامية أيضاً. مدرسة الأسرار. لا يبدو موضوعها من صورة الغلاف. قناع الموت. لغز الألغاز. قرأت كل هذا. الحطام. منظرها واسمها لا يشجعان.أنزلت يدى فى يأس. كان ساعدى قد بدأ يؤلمنى. وبدا كأنى لن أخرج بشئ هذه المرة. وزمجر الرجل من خلفى: "هو أنت موش عاجباك حاجة من كل دول؟"

أجبت بسرعة وأنا أستأنف البحث: "لا.. خلاص.. أهوه.."

جريمة بين السحاب. قرأتها من قبل ولا بأس من أخذها مرة ثانية لو لم أعثر على شئ.

ووضعتها جانباً. الرسائل المجهولة. قرأتها. هذه الرواية التى اسمها مدرسة الأسرار، لنجربها. ربما تكون مفاجئة. المرشد. الأخوات البيضاء. خبزنا اليومى. يوجينى جرانديه. عناوين لا معنى لها ويمكن أن تكون كل منها مقلباً. والأكيد أنها ليست بوليسية. لا يوجد أى شئ لشرلوك هولمز أو حتى شارلى شان الصينى رغم ثقل دمه. كل الروايات صغيرة الحجم. لو أجد واحدة من الروايات الكبيرة القديمة. لو أقع صدفة على الرواية التى كانت فى بيتنا وأنا صغير جداً وللأسف لم أقرأها لأن ما قرأته منها كافياً لإلقاء الرعب فى صدرى وجعلنى أمزقها لأتخلص منها. ولا زلت أذكر منها كلاماً عن شاطئ وقصر مهجور تقع به جريمة وناس تجرى فى الظلام وتتهامس. وهناك أيضاً رواية العين الحمراء. ثم الرواية التى كان أبى يقرأ فيها دائماً...

ودوى صوت مفاجئ. قريب منى بل فوق رأسى تماماً:

"إوعى... مافيش روايات. مش حنبيع روايات".

كان الرجل قد انتفض من مقعده غاضباً وخطف منى الروايات التى كنت أحتفظ بها فى يدى لأختار منها فى النهاية عندما أفشل فى الحصول على واحدة حلوة. وتطلعت حولى فى يأس. كل هذا البحث وأعود بلا شئ. ولمحت كتاباً ذا غلاف أسود سميك ملقى على مقربة، فتناولته بسرعة وفتحته. كان ورقه أصفر خشناً وطباعته رديئة. وحسبته من الكتب القديمة التى لا شأن لها بالروايات. ولم يكن له عنوان أو بداية. وقلبت صفحاته بسرعة. ثم أدركت أنه من القصص البوليسية القديمة. وقلت فى لهفة: "خلاص. حاخذ ده".

لكنه خطف الكتاب من يدى ودفعنى فى جنبى وهو يزعق: "ما عندناش روايات. مش حنبيع روايات".

ابتعدت فى أسى. ولم يكن أمامى وقت لأذهب إلى دكان آخر. وكان يجب أن أعود على الفور. فلم يكن أبى يعرف أنى خرجت.

وعندما دخلت الحارة سرت بجوار جدار البيوت محاذراً كى لا يرانى أبى لو كان

يقف فى البلكونة. وصعدت السلم جرياً حتى لهثت وعرقت. ووجدت باب الشقة موارباً كما تركته، فتسللت داخلاً وأنا أتصنت لأحدد مكان أبى. وأحسست أنه فى غرفة النوم، فاتجهت إليها. ورأيته متربعاً على السرير وأمامه المائدة الخشبية، وقد وضع فوقها علبة الحلاقة التى كانت فى الأصل صندوقاً للسجاير من الكرتون، وأسند المرآة إلى كوب من الزجاج ملئ بالماء. وكان يسن الموسى على راحة يده.

راقبت الموسى وهو يروح ويجئ فوق لحم كفه المتين فى بطء وثبات. أدركت أنه سيخرج. ولم يبد عليه أنه أحس بغيابى، فجلست على مقعد خشبى بغير مسند فى الركن، وجعلت أرقبه وهو يضع الصابون على ذقنه ويمر عليها بالمكنة ثم ينحنى إلى الأمام ليرى وجهه فى المرآة. وعندما انتهى دعك ذقنه بقطعة من الشبه، فبدت ناعمة منتعشة، وأردت أن ألمسها بأصبعى.

إلتفت إلى فجأة قائلاً: "إلبس هدومك عشان تخرج معايا".

كان الخروج معه أحسن من عشر روايات. وربما سنحت الفرصة فى الطريق لشراء رواية.

وقبل أن تنتبه أختى للأمر، فتبكى وتصرخ وتصر على الخروج معنا، ضحك عليها أبى بأن قال لها إنه سيتركها تلعب طوال اليوم فى شقة أم زكية المجاورة لنا.

ارتدى أبى ملابسه، ومسح طربوشه بكم سترته وأحكم وضعه فوق رأسه، ثم طوى طرفى شاربه الأبيض داخل فتحتى أنفه. وغادرنا الشقة وأغلقنا بابها وراءنا، وانطلقنا إلى الشارع. ولاحظت أننا نتجه إلى محطة الترام.

سألته: "إحنا رايحين فين؟"

فأجاب: "الوقت تعرف."

ركبنا الترام. وقطعنا مسافة طويلة ثم هبطنا أمام مبنى كبير مسور ومزدحم بالناس عند بابه وفى فنائه.

قال أبى: "دى المحكمة".

دخلنا إلى الفناء. وقال أبى: "الوقت إحنا حنخش جوه. وحنلاقى مامتك قاعدة مع أمها".

دهشت: "ماما؟"

– "أيوه. تروح تسلم عليها وتشوف حتقولك إيه".

– "وانت مش جاى؟"

– لا. حستناك بره فى الطرقة".

وقادنى أبى إلى ردهة كبيرة مظلمة. ومررنا بباب على اليمين فدفعنى ناحيته وهو يقول: "أهى هناك أهيه". وبالفعل رأيتها.

كانت تجلس ساكنة بجوار جدتى. وكانت الأخيرة أول من أبصرتنى. فتطلعت خلفى فى اهتمام، ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة لم أسترح لها، وجعلت تنظر إلى فى جمود. وكان وجهها محاطاً بطرحة بيضاء باهتة.

اقتربت منها وأنا أنظر إلى أمى. كانت ترتدى معطفاً من الحرير الأسود وحول رأسها "بيشة". ولاحظت شعرها الأسود الطويل. وخيل إلى أنها ازدادت طولاً وعرضاً عن آخر مرة رأيتها.

ورأتنى أمى. لكن لم يبد عليك أنها عرفتنى. وفجأة خاطبتنى فى هدوء كأننى لم أفترق عنها أبداً: "إزّيك".

لكنها لم تطلب منى أن أجلس بجوارها. وانصرفت عنى تتأمل ما يجرى فى القاعة. وقفت حائراً لا أدرى ماذا أفعل. وحانت منى نظرة إلى الردهة الخارجية، فوجدت أبى يستدير برأسه ناحيتى وهو يتمشى واضعاً يديه خلف ظهره. وأبصرت مكاناً خالياً بجوار أمى فجلست فيه.

كنا فى آخر القاعة. ولم تكن مزدحمة. وكانت بها دكك مستطيلة فى نهايتها منصة مرتفعة جلس إليها القاضى، وإلى يساره وقف شيخ بقفطان وعمة ونظارة وسيدة بملاءة لف. وكانوا يتناقشون.

كانت هذه أول مرة أرى فيه محكمة. واستغربت. فلم يكن هناك شئ مما كنت أتصوره. لا مرافعات ملتهبة، وقاعة مزدحمة، وقاض يرتدى وشاحاً ملوناً، ومحام يلوح بيديه ويرن صوته فى أنحاء القاعة.

نهضت جدتى فجأة ومضت إلى رجل بعمة فتحدثت معه قليلاً. والتفت إلى اليسار فرأيت أبى يتكلم مع بعض الناس. واختلست نظرة إلى أمى فوجدتها كما هى تتطلع أمامها بغير اكتراث.

وذهبت جدتى إلى أقصى القاعة وتحدثت قليلاً مع القاضى.

ولاحظت أن أبى يشير إلى من بعيد، فقمت واقفاً. ولم أدر ماذا أقول لأمى. ولم تنظر هى ناحيتى. فمشيت دون أن أقول لها شيئاً. وقال لى أبى: "هيه.. قالت لك إيه؟."

– "مفيش. قالت لى إزيك."

اتجه أبى إلى الباب وأنا معه. وسرنا فى الشارع، وكان ضيقاً وعلى جانبيه دكاكين قديمة. وكان أبى يدخن. ولمحت دكاناً به بعض الكتب. وجذبت أبى من يده وقلت له وأنا أستعد لخوض معركة: "بابا.. تعالى نسأل على روايات".

لم يعارض أبى. وصحبنى إلى الدكان وسأل صاحبه: "عندك روايات يا عم؟". قدم لنا الرجل خمس روايات وجدت أنى قرأتها جميعاً عدا واحدة. وكدت أقفز من الفرح. أرسين لوبين فى قاع البحر. وكانت الرواية جديدة ذات غلاف ملون ناعم يلمع. أخذت الرواية ودفع أبى ثمنها وخرجنا إلى الشارع الرئيسى.

وكنت أتمنى الآن أن نعود بأقصى سرعة.

ركبنا الترام ووضعت الرواية على ساقى مخفياً غلافها الأمامى. وجعلت أتأمل الغلاف الخلفى كان أبيض مصقولاً ويحمل إعلاناً عن الرواية التالية. وطوح الهواء بالغلاف فظهرت الصفحة الأخيرة وفى نهايتها كلمة لذيذة كبيرة: "تمت". وقاومت حتى لا أقرأ آخر سطور الرواية فأدرتها إلى وجهها الأمامى. طالعنى مسدس كبير وخلفه وجه رجل يرتدى قبعة لا بد أنه أرسين لوبين شخصياً. كان الاسم الساحر مكتوباً بحروف صغيرة أسفل العنوان. وقرأته وأنا أكاد أطير من السعادة.

سجن المحاريق بالواحات الخارجية 1963

بعد الظهر عبر ثلاثة أسرّة

كان جائعاً، والمنبه الموضوع فوق جهاز التليفزيون يشير إلى الثانية. وما زالت هناك ثلث ساعة على موعد سيد. وعندئذ يبدأون جميعاً الأكل.

ومال برأسه قليلاً ينصت إلى حركتها فى المطبخ. كان يعرف أنها تنتقل الآن بنشاط، رغم أعوامها الخمسة والستين، بين الحوض والبوتاجاز والمائدة ذات الغطاء الصاج. وأن كل شئ حولها متناثر فى فوضى بالغة.

وعندما توشك على الانتهاء ستصيح به من المطبخ: "ألم يحن موعد عودة سيد بعد؟"

فينظر إلى المنبه ويدقق النظر من خلف عويناته السميكة ثم يجيب: "لا بد أنه فى الطريق الآن".

وفى موضعه الذى اختاره من السرير، كان بوسعه أن يرى باب الشقة عندما يدير سيد المفتاح فيه، وبنفس الحركة يدفعه ويخطو إلى الداخل قائلاً: "السلام عليكم".

وبالرغم من أن زوجته لم تكف عن الشكوى من أن موضعه هذا يجعله عرضة

لتيارات الهواء، إلا أنه ظل متمسكاً به منذ أصبح المرض المتكرر يلزمه الفراش، كى يكون على مقربة من "الأحداث" على حد قوله. فقد كانت الغرفة تضم ثلاثة أسرة. اثنان منها يحصران باب البلكونة بينهما. والثالث يصنع مع أحدهما خطاً مستقيماً. وعندما يستلقى فوقه يواجه البلكونة. وإذا استدار وجلس بعرض السرير مسنداً ظهره إلى الحائط – كما هى عادته – أصبح باب الغرفة فى مواجهته، وبعده الصالة ثم باب الشقة.

ولهذا السبب كان باب البلكونة يظل مغلقاً دائماً بالليل والنهار، وبالصيف والشتاء، حتى أن من يزورهم – وخاصة ابنتهما فادية – كان يشتكى من أن رائحة الشقة لا تطاق.

وطبقاً للمنبه لا بد أن يكون سيد الآن على رأس الشارع، يتقدم بخطواته الطويلة المتهلة وصحيفة اليوم مطوية تحت إبطه. وعندما يصل إلى بائع الخبز سيتوقف عنده ليشترى عشرة أرغفة يلفها بالصحيفة ثم يواصل السير إلى الجمعية التعاونية ليرى ما بها من بضاعة جديدة. ولو حالفه الحظ..

مصمص بشفتيه متمنياً أن يحضر سيد معه شيئاً من البلح "الأمهات" الذى يتميز، فضلاً عن رخص ثمنه، بسهولة مضغه وابتلاعه وحلاوة طعمه إذا ما غُمس بالطحينة البيضاء. ولم تكن هذه متوفرة فى السوق الآن.

هز رأسه فى حركة من لوازمه. ومد أصابعه تحت الفانلة وجعل يدعك صدره بقوة ليفرك القذارة التى تكومت عليه. فبسبب مرضه كان معفياً من الاستحمام، وهى عملية لم يكن يستسيغها منذ صغره لا كرهاً فى النظافة وإنما بدافع الكسل. وبهذا الدافع كان وهو صغير ينام بملابس الخروج، كى يختصر الوقت لارتدائها فى الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة. وهى عادة اضطر أن يقلع عنها عندما أخذ الابتدائية والتحق بالوزارة.

شبك يديه على بطنه وتطلع مرة أخرى إلى المنبه. بعد عشر دقائق يحين موعد

نشرة الأخبار. ولا بد أن يأتى سيد قبل ذلك ليدير الراديو الموضوع فى الصالة.

ومن المطبخ أتاه صوت طشيش التقلية قبل أن يشم رائحتها. واعتدل فى مكانه وهو يطرف بعينيه خلف النظارة السميكة كى لا يفوته باب الشقة عندما فتح ودخل سيد.

وارتفع صوت الأم من المطبخ: "سيد؟ جئت يا حبيبى؟"

عبر سيد الصالة بعد أن أغلق الباب من ورائه. ووضع الخبز على مائدة الطعام، ثم اتجه إلى الغرفة التى جلس أبوه فى صدرها وهو يقول فى صوت مرتفع حتى يبلغ أمه فى نفس الوقت: "السلام عليكم".

كتم العجوز خيبة أمله عندما تبين أن سيد لم يحضر معه شيئاً من الفاكهة، ومد يده فتناول منه الصحيفة قائلاً: "ما هى الأخبار؟"

مط سيد شفتيه وهو يجلس بجوار أبيه على حافة الفراش، ويمد يده ليفك رباط حذائه: "لا شئ."

ثم: "فقط بلاغ عسكرى."

ودب النشاط فجأة فى العجوز إلى أن أضاف سيد: "عشر دقائق من النيران المتبادلة."

قال العجوز مكافحاً خيبة أمله: "لكن الحرب ستقع."

حمل سيد حذاءه فى يده ومضى يبحث حوله عن شبشب. وعندما لم يجد صاح: "ماما.. أين الشبشب؟"

ففى الثانية والأربعين كان سيد ما زال عاجزاً عن تحديد المكان الذى يترك فيه أشياءه المختلفة قبل أن يغادر المنزل فى الصباح.

وردت الأم من المطبخ:

"عندك يا حبيبى. فى نفس المكان الذى تركته فيه".

وقال العجوز وهو يبسط الجريدة ويتأمل العناوين الكبيرة: "ربما كان في حجرتك."

مضى سيد حافياً إلى حجرته ووجد الشبشب بجوار الباب. أكمل خلع ملابسه أمام مرآة الدولاب الكبيرة التي أظهرت وجهه معوجاً كالعهد بها دائما. لكن نعومة بشرته وخلو ذقنه من أثر لشعرة واحدة كان واضحاً على سطحها. ولولا قليل من الشحوب لأخطأه الرائي - وهو ما كان يحدث كثيراً - وظنه في العشرين.

جذب مصراع الدولاب ليعلق ملابسه في الشماعة. ثم تناول بيجامته التي ألقى بها على مقعد الصباح دون أن يطويها، وجعل يرتديها.

كان يستخدم هذه الحجرة في تغيير ملابسه وحسب. فهو يقضي الوقت كله في الغرفة الأخرى. وعندما مرضت الأم زمناً طويلاً شرع ينام في الفراش الثالث بمواجهتها، وهو الفراش الذي كان خاصاً باخته فادية قبل أن تتزوج. ولم تكد تشفى حتى مرض الأب. فظل سيد ينام في فراش أخته. وفي النهاية استقر في فراشها بصفة دائمة.

أتاه صوت أمه من المطبخ بعد أن فرغ من ارتداء بيجامته:

"سيد. الصحون يا حبيبي."

تحول إلى جهاز الراديو القديم وأداره. وانتظر حتى صدر عنه صوت متقطع أشبه بسعال رجل عجوز، واطمأن معه إلى أن الراديو ليس معطلاً، فمضى إلى المطبخ.

كانت أمه منحنية فوق إناء الطعام المستقر فوق الموقد، وقد تجمعت بضع حبات من العرق فوق شاربها الواضح. تحولت إليه وسألته:

"هل أحضرت السمن؟"

أجاب: "كان الزحام شديداً على باب الجمعية ولم أستطع الدخول". وجعل يجمع الصحون من المطبقية، ثم حملها إلى غرفة أبيه.

كانوا فيما مضى يأكلون في الصالة عادة. لكنهم في الآونة الأخيرة أصبحوا يأكلون - بسبب المرض - في نفس الغرفة التي ينامون فيها، على مائدة صغيرة استقر التليفزيون فوق طرفها. ولم تعد مائدة الصالة تستخدم إلا في وجود الضيوف، الأمر الذي صار نادراً.

وبعد أن أحضر سيد الملاحة والملاعق والسكاكين، ظهرت الأم بظهرها المحنى قليلاً وجسدها المترهل المهتز. وكانت تحمل آنية كبيرة من البطاطس المطهية بالطماطم، وضعتها وسط المائدة. وذهب سيد إلى المطبخ ثم عاد بطبق امتلأ بالأرز.

تشمم الأب بأنفه وهو يغادر فراشه بصعوبة ويأخذ مكانه إلى المائدة. وبدا بالمقارنة مع صورته المعلقة على الجدار كما لو كان قد انكمش إلى النصف.

قال: "كوب ماء لدوائي يا سيد."

لم تكن به حاجة إلى السؤال لأن سيد - بحكم العادة - كان في طريقه لإحضار كوبين لا كوب واحد. فقد كان كل من الأب والأم يتناول عديداً من الأدوية قبل الأكل وبعده وفي أثنائه.

ملأت الأم طبقاً كبيراً من الأرز والبطاطس أضافت إليهما السلاطة وقدمته إلى زوجها، وهي تلهث في انفعال من أنجز عملاً تاريخياً. وقلب هو الخليط بملعقته ثم أقبل عليه بشهية بالغة، وقد نسي أمر نشرة الأخبار التي كان المذيع يقرأها في صوت رصين. وملأت الأم لنفسها طبقاً مماثلاً بعد أن ابتلعت دواءها. أما سيد فقد بدأ بالبطاطس وحدها. ولم يعد هناك من صوت غير أفواههم وهي تمضغ الطعام يقطعها لهاث الأم بين الحين والآخر.

سأل سيد: "ألم تتكلم فادية؟"

أجابت: "أبداً". ومنعها انهماكها في الطعام من الاسترسال، فاكتفت بأن تضيف: "ربما تكلمت بعد الظهر".

كان السؤال وإجابته يترددان يومياً فى نفس الوقت منذ خمسة عشر يوماً. ففى ذلك التاريخ أنجبت فادية أول طفل لها. ولأن الأم أقسمت قبل ذلك بشهر ألا تضع قدمها فى منزل ابنتها، كما أقسم زوج الابنة بدوره أن يكسرها لها إن فعلت، فالنتيجة أن أحداً من الأب أو الأم أو سيد لم يقم بزيارة فادية عند الولادة أو فى أعقابها. الأمر الذى حدا بالزوج أن يقسم من جديد بطلاق زوجته إن ذهبت بالطفل إلى أهلها.

لكن الأم والابنة ظلتا على اتصال بالتليفون. وكثيراً ما كانت الأخيرة تضع سماعته بجوار فم الطفل لتسمع الجدة صراخه أو غمغمته، وإن كان فى معظم الحالات لا يصدر صوتاً على الإطلاق.

انتهى الأب من طبقه، فملأت له الأم طبقاً آخر أقبل عليه بنفس الشهية.
وانتهزت الأم لحظة تستريح فيها من الأكل لتسأله:

"أعجبك الأكل يا بابا؟"

فمنذ زواجهما قبل أكثر من أربعين عاماً وهما يخاطبان بعضهما بـ"بابا" و"ماما".

قال الأب خلال فمه الممتلئ: "تسلم يدك". وتساقطت بعض حبات من الأرز على صدر بيجامته.

تحولت الأم إلى سيد الذى كان يأكل بشهية لا تقل عن شهية أبيه: "ألم تعرف بعد متى سيجرى التحقيق معك؟"

أجاب: "لا."عادت تقول: "أما كان بوسع رئيس القسم أن ينهى الأمر بنفسه دون حاجة إلى تحقيق أو خلافه؟"

هز سيد كتفه ولم يجب.

وتساءل الأب وهو يضع ملعقة كبيرة من خليط الأرز والبطاطس والسلاطة فى فمه: "أكان من الضرورى أن تغيّر الكون؟"

وهو تعليق كان مفاجأة لسيد، لأنه كان بادرة بحدوث تغيير فى موقف أبيه. فحتى الآن كان يعتقد أن الأب والأم فى صفه كدأبهما دائماً. ألم يكونا هما الوحيدان بين الناس اللذان يرمقانه بنظرات الإعجاب عندما يعلن عليهما – مثلاً – ما يكتشفه من أخطاء لغوية ونحوية فى الصحف بينما لا يواجه فى المؤسسة عند ذلك بغير نظرات الملل والسخرية وخصوصاً من سليمان؟

فضلاً عن أنه لم يرغب فى تغيير الكون أو أى شئ. كل ما فى الأمر أنه أراد أن يعيد الأمور إلى نصابها الحقيقى.

وإلا فيما الحكمة فى أن تؤرخ مؤسسة عربية فى بلد عربى رسائلها إلى مؤسسات عربية أخرى بالأرقام بدلاً من الحروف؟

قالت الأم وهى تتطلع إليه بفخر: "لكن الحق مع سيد."

قال الأب الذى اهتز إيمانه بابنه فى ضوء التحقيق المنتظر: "ماذا سنكسب من كتابة التاريخ بالحروف؟"

انحنى سيد برأسه فوق الطبق وهو يفكر فى الأمر قانطاً. أليست هناك موسيقى تستريح لها الأذن المدربة فى جملة مثل هذه: تحريراً فى الثالث من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وتسع وستين؟ أو... الرابع من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وستين. إن تسعين فى المائة من الناس اليوم لن ينتبهوا إلى الفرق بين الجملتين الذى أحدثه استبدال كلمة "سنة" بـ"عام". وهل هم كثيرون الذين يستطيعون تبين أى الصيغ هى الصحيحة عند كتابة عام 1912 مثلاً بالحروف... اثنتى عشر أم اثنى عشر أم اثنى عشرة؟.

لو لم يعترض سليمان ويرفع الأمر إلى رئيس القسم لما وقعت مشكلة. فمثل أمور كثيرة تحدث كل يوم كان يمكن للتغيير الذى أجراه سيد على كتابة تاريخ الرسائل أن يمر دون أن يلحظه أحد. لكن سليمان – ذلك الذى ليس له من حديث يومى غير غزواته النسائية

- شاء أن يجعل من هذه القضية مجالاً لاستعراض مواهبه فى الكلام المعسول. فماذا تفعل المؤسسة عندما تكتب إلى مؤسسات غيرها فى بلدان عربية أخرى تستخدم أسماء أخرى للشهور؟ هل تحرر الرسائل باسمين للشهر وأحياناً ثلاثة؟.

ولم يعدم سيد دفاعاً عن فكرته يقدمه إلى رئيس القسم، فالأرقام دائما معرضة للخطأ ولهذا تكتب الشيكات مثلا بالأرقام والحروف. ثم هناك الحجة الأصلية وهى أن الأرقام بصورتها المتداولة دخيلة على اللغة العربية ولا تستخدم فى بعض البلدان العربية. ولو كان رئيس القسم شخصاً آخر أكثر جدية لانتهى الأمر بقبول اقتراحه ولما حدث ما حدث.

أفرغ الأب طبقه وترك الملعقة تتدحرج به. ثم تراجع إلى الوراء واضعاً يده على بطنه.

لم يكن طبق الطعام المتلئ يستغرق منه غير دقائق معدودة لأنه لم يكن يمضغ شيئاً منذ فقد أسنانه كلها من عهد بعيد.

سألته زوجته: "هل أضع لك المزيد؟"

أجاب: "الحمد لله. شبعت". وتناول حبتين من دواء ما بعد الأكل ابتلعهما بما تبقى فى الكوب من ماء. ثم قام من مقعده واتجه إلى السرير، فاستلقى على ظهره شابكاً يديه فوق صدره.

استولى عليه الخمول وشعر برغبة قوية فى النوم. وفى شبه اغفاءة تابع زوجته وابنه وهما يرفعان بقايا الطعام ويهرعان إلى فراشيهما فيرقدان جاعلين رأسيهما عند قدميه. وأصبح الثلاثة مثلثاً بست عيون تتطلع فى اتجاه واحد هو باب البلكونة.

وفى الماضى كانت غفوة ما بعد الغداء تستمر طويلاً يقوم بعدها نشطاً منتعشاً. لكنها فى السنوات الأخيرة أصبحت قصيرة للغاية. فما يلبث أن يفيق ويظل ممدداً يتطلع إلى

السقف دون أن يتبين تفاصيله. بينما تتراجع الشمس فى الخارج فى طريقها للاختفاء النهائى ويتناقص الضوء تدريجياً بالغرفة. ويهب برأسه بين الحين والآخر ويدقق النظر من خلف عويناته السميكة إلى الفراشين الآخرين. وغالباً ما تكون الأم قد أفاقت هى الأخرى. والذى يحدث أن يبدأ أحدهما الحديث عبر الفراشين فى الوقت الذى يكون الآخر قد استيقظ لتوه بالفعل.

ويبدأ هذا الحديث عادة بأن يذكرها أحدهما - وهو الأب فى الغالب - أن فلاناً من الأقارب لم يزرهم منذ مدة. وهو يذكر هذه الحقيقة بصوت تقريرى لا يوحى بأى شئ فى الظاهر. عندئذ يقوم الآخر - الأم عادة - بعملية حسابية سريعة لآخر مرة زارهم فيها هذا القريب.

وعندئذ يقول الأب متظاهراً بعدم المبالاة: "لعله مشغول فى شئ أو مريض. أو أحداً من عائلته. من يعلم؟"

فترد الأم على الفور بأن هذا القريب شوهد عند فلان فى الأسبوع الماضى. فدون أن تغادر المنزل كانت على بينة - بواسطة التليفون - بكل ما يحدث فى عالمها الصغير.

وتكون هذه الإجابة التى ينتظرها، فيتنهد. وهنا يتفرع الحديث فى أحد اتجاهين. إما عرض كافة المعلومات المتوفرة عن الحياة الشخصية لهذا القريب، أو تعداد الأقارب والمعارف الآخرين الذين لم يقوموا هم أيضاً بواجب الزيارة منذ مدة.

لكن الحديث اتخذ اليوم مساراً آخر بسبب ما أعلنته فادية فى التليفون أمس من أن زوجها حصل على عقد للعمل فى الكويت، وأنهما سيسافران فى أقرب وقت تسمح به صحة الطفل.

فقال الأب فى صوته التقريرى المحايد: "سأموت دون أن أرى الولد."

وردت عليه زوجته على الفور: "بعد الشر. لا تقل هذا."

ثم: "ربنا ينتقم من الذى كان السبب"، دون أن تدرك أنها بذلك لا تعرض غير نفسها للانتقام الإلهى.

فقد كان هناك جانب كبير من الصحة فيما قاله الأب بعد لحظة: "لولا غرامك بأبيه ما أعطيناه فادية."

وهو اتهام لم تعد تنكره، وإنما تجيب عليه كما أجابت الآن: "غار هو وأبوه". وهذا لا يمنع أنها كانت فى يوم من الأيام مغرمة بأبى زوج ابنتها الذى يمت إليهم بصلة القربى. وهو ما اكتشفه الأب فى حينه ذات ليلة فى الفراش، عندما صرخت فى لحظة من لحظات النشوة باسم القريب بدلاً من اسمه هو، كما كان المفروض.

وللمرة المائة تساءل: "ترى من يشبه؟"

وللمرة المائة أيضا أجابت: "أدعو الله ألا يشبه أباه فى شئ".

ثم تذكرت: "هل أعد لك فنجان قهوة يا بابا؟"

تساءل بابا دون أن يحول عينيه عن السقف: "ألم يستيقظ سيد بعد؟"

فسيد هو الوحيد الذى يستفيد من إغفاءة بعد الظهر أتم الفائدة، فهو ينام نوماً عميقاً لساعة أو تزيد. وبقيامه من النوم يبدأ برنامج المساء بشرب القهوة، وهى عادة لم تنقطع منذ أخذ الليسانس والتحق بالشركة التى تحولت أخيراً إلى مؤسسة حكومية.

ويختار سيد هذه اللحظة ليتقلب فى فراشه، ويبسط ساقيه على سعتهما، ثم يفتح عينيه ويطوح بذراعيه متثائباً فى عمق. وعندئذ يردد الأب والأم فى نفس واحد: "صح النوم يا حبيبى".

فيغمغم سيد بـ"صح بدنك" موجهة إلى كليهما.

وتسأله الأم: "هل نمت جيداً؟"

فيجيب: "لا بأس".

وفى اللحظة التى انتبه فيها سيد من النوم تمثلت له على الفور غرفة رئيس القسم عندما هب واقفاً محتقن الوجه ليعلن فى صوت حاسم: "لا بد من إجراء تحقيق".

لكن رئيس القسم هو الذى كان مسؤولاً عن كل ما جرى. فما كان له أن يعلن فى استهانة أن مشكلة التاريخ بسيطة للغاية لا تحتاج لكل هذا النقاش. إذ انتفض سيد عند ذلك – ربما لأول مرة فى حياته الوظيفية – مؤكداً أن أموراً كثيرة تتوقف على هذه القضية البسيطة، وأنها على أية حال محاولة لمحاربة الجهل والتواكل. وهى إشارة اعتبرها سليمان إهانة له، فرد معرضاً بذقن سيد التى لم ينبت لها شعر حتى الآن. هكذا رفع سيد يده – لأول مرة فى حياته بالتأكيد – وصفع سليمان على وجهه.

انتزعه من غرفة رئيس القسم قول أبيه: "ما رأيكم لو يذهب سيد وحده ويأتى لنا بالطفل؟"

فمنذ زمن بعيد، وبناء على تأكيدات الأطباء، فَقَد كل أمل فى أن يستمر اسمه فى الأرض عن طريق سيد. ورغم أن ابن فادية لن يحمل هذا الاسم، إلا أنه بالتأكيد يحمل نصيباً كبيراً من دمائه. وها هو الآن يحرم من رؤيته وهو على عتبة الموت.

شعرت الأم عندما فكرت فى الاقتراح الجديد أنه لن يحقق لها الانتصار التام على زوج ابنتها. فقد كان فيه نوع من الإقرار بضعفهما. والأفضل أن يجدا وسيلة ترغمه على أن يأتى بالطفل صاغراً أو على الأقل يسمح لفادية بذلك.

قالت فى غير حماس: "وهل سيقبل؟ سأقول لفادية على أية حال إذا تكلمت".

وكانوا جميعاً يفكرون فى نفس الموضوع عندما قال الأب فى صوته المحايد: "ترى.. ماذا يكون مآل الشقة؟"

كانت الشقة المشار إليها كبيرة، عبارة عن الطابق الأول من منزل قديم ذى حديقة، لكن أثاثها كله كان جديداً.

قالت الأم: ربما أجّروها مفروشة. أو تركها لأحد من اخوته".

فعلق الأب فى إشفاق: "وعندما يعودون يجدون الأثاث كله تالفاً".

وكانوا يعرفون الأثاث قطعة قطعة منذ كان الأب والأم هما اللذان ابتاعاه فيما عدا الثلاجة الأمريكية الضخمة التى أحضرها زوج الابنة يعلم الله من أين.

قالت: "ربما لن يمكث بالكويت سوى سنة واحدة، وفى هذه الحالة لا داعى لتأجيرها".

فاندفع سيد مترجماً الفكرة التى لاحت فى الأفق: "وفى هذه الحالة يمكن أن يعطينا الثلاجة بدلاً من تركها فى شقة مغلقة".

فعلى مدى السنوات الخمس عشرة الماضية، استطاع الأب من معاشه البسيط ومرتب سيد، أن يزود مسكنه على التوالى بموقد غازى وسخان للمياه ودوش متحرك وتليفون وأخيرا تليفزيون ما زال يسدد أقساطه.

وفى كل مرة يقررون شراء الثلاجة يقف الأب أمام الثلاجة الخشبية القديمة ويربت على سطحها قائلا إنها تستطيع أن تحمل عبء الصيف القادم، والأفضل أن يبتاعوا شيئا آخر.

وكان سيد هو الذى يشترى الثلج مرتين كل يوم فى الصيف ليضعوه فوق أنابيبها. وفى الشتاء تترك مهملة تمرح الصراصير فى جنباتها.

قال الأب: " الثلاجات فى الكويت برخص التراب، ويمكنه أن يحضر معه واحدة جديدة."

وعلق سيد: " كل شخص هناك يملك سيارة".

وتصورت الأم سيداً فى سيارة حمراء فارهة أمام باب المنزل.

وكان سيد يفكر فى مشط ماكينة الحلاقة الكهربائية الذى تلف منذ مدة. وهى

واحدة من ثلاث ماكينات ابتاعها من غزة فى إحدى الرحلات التى كانت المؤسسة تنظمها لموظفيها قبل يونيو 1967. وعندما تحطم مشطها وضعها جانباً لأن قطع غيارها لم تكن متوفرة فى السوق. "أما الآلتين الأخريين فقد باعهما بضعف ثمنهما".

تنهدت الأم قائلة: "أنشرب القهوة الآن؟"

وأجاب الاثنان فى صوت واحد: "أجل".

غادر سيد فراشه ومر بأصابعه على شعر رأسه. ثم ذهب إلى الحمام. وعند عودته وجد أمه قد أحضرت كنكة وملأت ثلاثة فناجين قام سيد بتوزيعها. ثم استقر كل منهم فى فراشه من جديد.

واصل الأب الحديث قائلاً: "ربما أعجبتهم الحال واستقروا فى الكويت".

وعلى الفور أخذت القضية بعداً جديداً فى أذهانهم. لكن أحداً لم يجرؤ على ترجمة هذا البعد إلى كلمات. فقد جعل كل منهم يتصور عصارى الصيف فوق مقاعد القش فى الحديقة، والهواء يهب خفيفاً وكلما أوغل الليل ازدادت رطوبته. أو صباحيات الشتاء فى الجانب الآخر من المنزل، والشمس تسقط مترددة فى البداية ثم تزداد دفئاً كلما تقدم النهار.

قال الأب بعد قليل: "لماذا لا نتصل نحن بفادية نسألها عن صحتها وعن الولد؟ إنها ابنتنا قبل كل شئ".

ردت الأم: "لا أحتمل أن أسمع صوته يرد على".

لكن صوتها رق وهى تضيف: "إن لم تتكلم فى ظرف ساعة سأفعل".

انتهى سيد من فنجان قهوته وأشعل سيجارة. وسأله أبوه: "ألا تنوى الخروج يا بابا؟"

لم تكن عادة سيد أن يخرج بعد الظهر. ومع ذلك كان الأب يوجه إليه هذا السؤال

كل يوم، ويجيب سيد أيضاً كل يوم: "كلا. سأبقى فى المنزل".

ومنذ خمس عشرة سنة كانت هذه الإجابة تفعم قلب الأب بالأسى. فبينما كان غيره من الشباب فى سنه يتزينون ويتعطرون ويسعون خلف البنات، ثم يتزوجون وينجبون، شرع فجأة يفقد حيويته البالغة التى كان يتميز بها وهو بعد فى المدرسة ثم الجامعة، وقبع فى المنزل يشرب القهوة ويدخن صامتاً، ويقرأ الروايات ويتفرج على التليفزيون.

وبمرور الزمن نسى الأب هذه المشاعر القديمة، وأصبح الآن عندما يقول لسيد: "اخرج يا ابنى قليلاً بدلاً من أن تسجن نفسك هكذا"، يشعر بالرضى والسعادة عندما يرد هذا: "وأين أذهب؟ لا أحسن هناك من قعدة المنزل".

فبذلك كان ثمة ضمان لكل من الأب والأم أن يحصلا فى الوقت المناسب على الإسعاف اللازم إذا ما داهمتهما إحدى نوبات المرض التى أخذت تلاحقهما فى الآونة الأخيرة. وإن كان من الغريب حقاً أن هذه النوبات لا تقع فى فترة الصباح، التى يكون سيد خلالها فى المؤسسة، وإنما تحدث دائماً بعد الظهر، وخصوصاً بالليل بعد أن يخلد سيد للنوم. عندئذ يصرخ أحدهما: "آه يانى". وفى ثانية يكون سيد إلى جانبه يسأله عما حدث ويناوله الدواء، أو يهرع إلى التليفون ويتصل بالطبيب الذى يهون الأمر بصوت ملول، ويأمر بتكرار نفس الدواء المذكور فى الروشتة.

ولا ينتهى دور سيد عند هذا الحد. ففى أقرب فرصة، وبتعليمات من الأب والأم، اللذين يلزمان الفراش غالباً فى وقت واحد، يبدأ الاتصال بأفراد العائلة واحداً بعد الآخر ليعلن إليهم النبأ فى ذلك الصوت التقريرى المعهود: "والله متعبان قليلاً". أو: "هما فى الفراش من أمس". ولكى ينفى شبهة المبالغة: "يقول الطبيب.." ثم: "وماذا؟ بالأمس. بينما كانا نائمين"، ويسرد ما حدث بالتفصيل.

ثم يقبع الثلاثة فوق أسرتهم فى انتظار رد الفعل.

كان الأب قد استدار على جانبه الأيسر بحيث واجه الصالة وقال: "شوفوا لنا ماذا فى التليفزيون الليلة".

وتمنى الأب أن يحتوى البرنامج على أحد الأفلام القديمة التى دأب التليفزيون على عرضها فى الآونة الأخيرة. فما أجمل عبد الوهاب الشاب عندما يزرر سترته ويحكم وضع طربوشه على رأسه مائلاً إلى اليسار ثم يمر براحة يده فوق شعره، عند حافة الطربوش اليمنى، ويشرع فى الغناء. أو يوسف وهبى عندما يجمع أطراف روبه بأصابعه باسطاً قامته إلى مداها، ويزأر بصوته الفخم أن شرف البنت مثل عود الكبريت لا يشتعل غير مرة واحدة.

وعندئذ سيغادر فراشه ويجلس أمام التليفزيون مباشرة كى يتمكن من الرؤية. وتجلس زوجته إلى يمينه وسيد إلى يساره بعد أن يطفئوا النور. ويميل الثلاثة على المائدة معتمدين عليها بمرافقهم، إلى أن تنتهى السهرة.

وفى الخارج كان الظلام ينتشر بسرعة. وقام سيد فأضاء النور، وعاد ينحنى فوق الجريدة متمعناً فى برنامج السهرة.

وقالت الأم: "لم تتكلم فادية بعد".

واعتدل الأب على ظهره وسقطت عيناه من جديد على السقف دون أن تتبينا تفاصيله. ثم مر بيده على بطنه قائلاً:

"نتصل بها إن لم تتكلم بعد ساعة".

ثم:

"ماذا سنتعشى الليلة؟"

برلين 1969

أغانى المساء

عندما ظهر الرجل السمين فى النافذة أدركت أن اليوم انتهى، وأن صوت أبى ما يلبث أن يستدعينى. وأسرعنا نجمع الكرات الزجاجية الملونة من فوق الأرض.

استند الرجل بساعده الأيسر إلى حافة النافذة فى اطمئنان. ومد يده اليمنى بطرف خرطوم من المطاط الأسود. ثم اكتسح الحارة ببصره كأنما يبحث عن المكان الملائم الذى يبدأ منه.

تعلقت عيوننا بفوهة الخرطوم. وعندما انطلقت منها المياه تراجعنا إلى الوراء حتى التصقنا بالحائط. وتابعنا المياه وهى تنهمر فوق المنطقة التى حفرنا فيها دوائر "البلى" الخمس. ورأينا المياه تنساب داخل الحفر مكان البلى.

وبعد لحظة بدت الحارة خالية تماماً، وهى التى كانت منذ قليل تعج بضجيج يصم الآذان. فقد كانت المياه المتدفقة من الخرطوم تكتسح أمامها كل شئ. وشعرت بالظلام يطبق علينا، فتطلعت إلى أعلى. كان الظلام يتضاءل كلما اتجهت ببصرى إلى أعلى. وطالعنى وجه أبى يطل من شرفتنا ومن خلفه سماء مازالت تحتفظ ببقية من ضوء الغروب.

سمعت صوته ينادى على ككل ليلة. وشعرت بالأسى ككل ليلة. أعطيت البلى لأصدقائى، واحتفظت بواحدة فى لون السماء الصافية. وسرت إلى منزلنا فصعدت درجه الضيق إلى الطابق الأخير.

وجدت باب شقتنا مفتوحاً ومصباح الصالة مضاء. واتجهت إلى المطبخ. كان صوت أختى يأتى من الشقة المجاورة لنا حيث تلعب مع أولاد أم زكية. اغتسلت بصنبور حوض المطبخ، وهو الحوض الوحيد فى شقتنا. ثم هرعت إلى البلكونة.

كان الظلام قد لف كل شئ. وأضاء مصباح الصالة جانباً من البلكونة، لكن أبى كان يجلس فى الجزء المعتم منها. ووقفت فى مدخل البلكونة أتأمله. ولم ألبث أن شعرت بالراحة. كان وجهه هادئاً مسترخياً، ونظرته وادعة سرحانة.

جلست إلى جواره فى صمت. كنت متعباً. وكان هو غارقاً فى تأملاته. وبين الحين والآخر كانت عيناه تستقران على إحدى النوافذ المضيئة المواجهة لنا فيتابع ما يبدو من خلالها، وهو يجذب أنفاس سيجارته متلذذاً.

سمعت حركة خلفى فى الصالة. كانت أختى قد جاءت من عند أم زكية. احتضنها أبى وحملها فوق ساقيه. لكنها أعلنت أنها تريد أن تنام. فأنزلها على الأرض ووقف. وصحبها إلى الداخل. ثم عاد بعد قليل، فتناول قلة المياه التى وضعناها على سور البلكونة لتبرد، وأزاح غطاءها، وجعل يكرع الماء فى صوت وادع.

التقطت أذناى صوت الراديو فى شقة أم زكية، فقمت وأنا أقول: "أنا رايح أنام. تصبح على خير يا بابا".

كان أبى قد عاد إلى مقعده فاقتربت منه وملت عليه ثم قبلت وجنته. وقال لى: "وأنت من أهله".

عبرت الصالة الصغيرة التى لم يكن بها غير مقعد هزاز تمزق قشه من زمن،

وساعة حائط كبيرة. ودخلت حجرتنا فوجدت أختى غارقة فى النوم. وقد رقدت على ظهرها وتناثر شعرها الطويل حول رأسها، وثنت ساقها إلى أعلى ووضعت الثانية فوقها. ومددت يدى فأطفأت النور ثم خطوت ناحية السرير فصعدت فوقه وتمددت بجوارها. وهبت على وجهى نسائم خفيفة من النافذة الصغيرة فى مواجهتى فأغمضت عينى.

كنت أحب أن أنام كل ليلة فى الظلام والنافذة مفتوحة وصوت الراديو يأتينى واضحاً من شقة أو زكية، التى تجاور نافذتها نافذتنا الصغيرة.

وكانت أم زكية لا تدير الراديو إلا عندما ينام أولادها وتجلس فى انتظار زوجها. كان رجلاً أسمر خجولاً، أحول العينين، لا نكاد نشعر به، ويقضى اليوم كله بالخارج. وقد سمعت أبى مرة يتعجب مما جمع بينه وبين زوجته البيضاء الممتلئة.

جاءنى صوت الراديو واضحاً، فأدركت أن نافذتهم مفتوحة، وأنصت فى ارتياح. كانت أم كلثوم فى الغالب هى التى تغنى. ولم أكن أعرف ماذا تقول. ولم يحدث أبداً أن تبينت كلمات أى أغنية، كما كنت أخلط دائماً بين عبد الوهاب ومحمد أمين وفريد الأطرش، لم أكن أهتم إلا بالموسيقى.

فتحت عينى فى بطء فوقعتا على النافذة. كانت السماء قريبة دانية. والنجوم تتحرك فى خفة. وخفقت إحداها فى اضطراب وضعف. وسكت الراديو فجأة، ثم سمعت حركة فى الشقة المجاورة فأدركت أن أبو زكية قد عاد. وبدأ وابور الجاز يطن طنيناً خافتاً ثم انطفأ. وسمعت صوت ملعقة تصطدم بطبق. ثم جاء صوت المرأة متواصلاً من مكان واحداً. كان صوتها هادئاً يرن واضحاً فى هدأة الليل. وأغمضت عينى. كان ذلك يحدث كل مساء. وظللت أنصت للطنين الآتى من الشقة المجاورة. كنت أحب هذا الصوت أيضاً. كنت أحب أن أنام وهو فى أذنى.

لكنى لم أنم. فقد دوت فجأة صفارة طويلة متقطعة. وفتحت عينى على سعتهما. أدركت أنها صفارة الإنذار. وأخذت أنصت لها فى سرور ولذة. واستيقظت أختى فزعة،

وسمعت صوت أبى ينادى على وهو يتعثر فى الظلام بعد أن أطفأ نور الصالة. فقلت له: "أنا هو يا بابا". وجذبت أختى من يدها وأنا أقول: "متخافيش". ثم هبطنا من فوق السرير واتجهنا إلى الباب الذى كان يبدو واضحاً. ولمحت شبح أبى فى الظلام فاتجهت نحوه. مد يده نحونا فاحتضننا، واستدار ناحية البلكونة. واقتربنا منها. كان الاضطراب يسود الحارة، وأنوار الشقق تطفأ على عجل. واستطعت أن أسمع فى الظلام أصوات الناس الذين كانوا يهرعون على السلام إلى المخابئ.

رفعت رأسى إلى أبى وسألته: "إحنا مش حنروح المخبأ؟"

شعرت به يبتسم، ورأيت صفاء عينيه فى الظلام. أجاب: "مخبأ إيه؟ خلى اتكالك على الله". ورفع رأسه إلى السماء وهو يشير بإصبعه مؤكداً. وتابعت حركة إصبعه بعينى. كانت هناك آلاف من النجوم على مقربة. فقد كانت شقتنا فى آخر دور ولم يكن فوقنا إلا السطح.

سكتت الصفارة مرة واحدة، وساد الدنيا كلها سكون شامل. وكنت أسمع الحفيف الذى يحدثه الهواء بجلباب أبى.

سحبنا أبى من أيدينا إلى الداخل. وتحركنا فى حذر حتى تبينا طريقنا إلى الحجرة الداخلية. جلسنا على السرير. وقام أبى إلى النافذة الصغيرة فأغلقها، ثم فكر قليلاً وعاد ففتحها قائلاً: "أحسن القزاز يقع". سألته: "يقع إزاى؟" فقال: "لو وقعت قنبلة جنبنا تعمل هزة توقعه". قلت: "مين عارف.... يمكن تقع علينا". فأجاب بثقة: "لا. متخفش. مش حتقع".

لم أكن خائفا. واقتربت من النافذة، ورفعت يدى قليلاً إلى أعلى لأستند على حافتها. فلم تكن رأسى تعلو على الحافة إلا قليلاً. وألقيت نظرة على نافذة أم زكية فوجدتها مظلمة. وتطلعت إلى السماء. كان كل شئ هادئاً. وهتفت فجأة: "شوف يا

بابا". كانت الكشافات قد ظهرت فى السماء. وأسرعت أختى بجانبى تريد أن ترى. ورفعها أبى من إبطيها لتتمكن من الفرجة. كانت الكشافات تدور فى السماء بسرعة محمومة وهى تبحث فى اضطراب. وتوقف اثنان منها على نقطة مضيئة. وقال أبى من فوقنا: "أهى مسكت طيارة". ثم أضاف على الفور: "أخ... الطيارة هربت."

تحرك الكشافان بسرعة من جديد ثم اختفت الكشافات كلها مرة واحدة. تساءلت: أين ذهبت. ودوى فجأة صوت انفجار خافت بعيد. شعرت بيد أبى تقبض على كتفى فى عنف واهتز جلبابه بجوار رأسى وأدركت أن أختى هى التى تشده. وقال أبى: "تعالوا هنا أحسن".

جذب بطانية من فوق السرير ثم انحنى على ركبتيه. وزحف إلى أسفل السرير، وبسط البطانية على البلاط، ثم دعانا إلى أن نلحق به. وسرعان ما كنا أنا وأختى تحت السرير بجواره. وكان يجلس على ركبتيه محنياً إلى الأمام حتى لا يصطدم بسقف السرير. وكمشنا إلى جواره وهو يحتضننا بذراعيه. وكنا نضحك أنا وأختى. أما هو فلم نكن نرى وجهه فى الظلام. وسمعناه يقول: "دلوقت لو وقعت علينا قنبلة حنتقع على اللى فى المخبأ. ومش حيصلنا حاجة. أما هم فحيبقوا عجينة".

كنت قلقاً أتلهف على رؤية ما يجرى فى السماء. وزحفت إلى حافة السرير مقترباً من النافذة. أخرجت رأسى وتطلعت إلى أعلى فرأيت جانباً من السماء. أخذت أتأمل منتظراً. كانت هناك نجوم كثيرة. وكنت أثبت عينى على كل واحدة حتى أتأكد من أنها لا تتحرك. وما لبثت أن ارتجفت من الفرح. فقد رأيت نجمة كبيرة تنساب متحركة. وأدركت أنها طائرة يهودية. ولم أشأ أن أفوه بكلمة حتى لا يحرمنى أبى من الفرجة. ومضيت أرقب الطائرة وهى تسير ببطء. وفجأة ظهرت عدة كشافات، أخذت تتلاقى وتتعانق ثم تفترق، وتصعد ثم تهبط من حول الطائرة. وخيل إلى أن الطائرة غيرت طريقها. وأغمضت عينى ثم فتحتهما لأرى جيداً. كانت الكشافات تذرع السماء. وهمس أبى: "إنت رحت فين. تعالى هنا".

عدت إلى جوار أبى والتصقنا ببعض وانتظرنا فى صمت. كان السكون شاملاً وسمعنا طنيناً بعيداً يزداد اقتراباً لحظة بعد أخرى. وبدا كما لو كان يأتى من الجهات الأربع. ولأول مرة شعرت بالخوف. وتوقف الطنين فجأة ثم سمعنا صوت انفجار قريب. التصقت بأبى، فجذبنى إليه فى قوة. وشرعت أختى بالبكاء. وتوالت سلسلة من الانفجارات القوية. وفجأة زحف أبى إلى الخارج وهو يجذبنا خلفه. وتبعناه فى صمت. وتحركنا فى الظلام إلى الصالة، ثم ناحية الباب الخارجى. وخطر لى أننا سنهبط إلى المخبأ. لكن أبى لم يفتح الباب، وإنما تجاوزه إلى الكنيف وفتح بابه. كان الصنبور يرسل نقطاً صغيرة من الماء. فلم أبى جلبابه وانحنى إلى الأمام فأحكم إغلاق الصنبور، ثم أخرج علبة كبريت من جيبه، وأشعل عوداً أضاء به الكنيف.

ظهرت فتحته الدائرية يحيط بها أثران بارزان على هيئة القدم، وسط قاعدة حجرية مرتفعة. ورفع أبى يده بالعود إلى الأعلى وارتقى القاعدة الحجرية. ثم استدار إلينا واستند بظهره إلى الحائط حتى ثبت قدميه فوق القدمين البارزين بجوار فتحة الكنيف. وجذب أختى فأوقفها إلى يمينه. وعندئذ انطفأ العود فى يده فمد يده إلى وقال لى: "اطلع". وأمسكت بيده وصعدت إلى جواره، ووقفت إلى يساره. وانحنى إلى الأمام فجذب الباب نحونا وأغلقه علينا.

وقفنا فى ظلام تام. لكنى كنت أشعر بالفرق بين اللون البنى الغامق الذى دهنت به جدران الكنيف من أسفل حتى منتصفها، وبين اللون الأبيض الذى يغطى الأجزاء العليا. بل كنت قادراً على تبين لمعان اللون البنى الذى استخدم الزيت فى طلائه. وكنت أشم رائحة الطلاء الزيتى النافذة. فقد كانت الشقة جديدة ولم يكن لنا فيها أكثر من شهور.

لم أكن أسمع شيئاً مطلقاً. وبعد لحظة تبينت صوت تنفس أبى وكان قوياً. وكانت رأسى مستندة إلى جانبه، فشعرت بصدره يتحرك. واحتكت قطعة من المعدن فى حزام الفتق

الذى يلفه حول وسطه بأذنى فآلمتنى. وما لبثنا أن سمعنا صوت انفجارات متتالية. كان الصوت قريباً جداً كأنه فى الشارع المجاور. وتصورت أن هناك طائرة تتقدم نحو منزلنا، وهى تسقط القنابل أثناء تقدمها. ولأول مرة توقعت أن تقع علينا قنبلة بين لحظة وأخرى.

جذبتنى يد أبى إلى جانبه فى قوة. والتصقت به أنا فى خوف. كان وجهى عارياً فى مواجهة الباب، فأدرته وأخفيته فى ملابسه. ولمس جلبابه فمى فقبلته. وشعرت به يرتجف، وسمعته يهتف فى قوة: "يا لطيف أُلطف".

لا أدرى كم من الوقت مر علينا ونحن هكذا. لكن سرعان ما أدركت أن الانفجارات توقفت. واسترخت قبضة أبى على كتفى حتى هدأ تنفسه. ودام السكون بعض الوقت، ثم دوت صفارة حادة طويلة فانتفض أبى وتنهد بصوت مسموع. ورفع يده من فوق كتفى وانحنى على باب الكنيف ففتحه، ثم هبط إلى أرض الصالة وأسرع يضئ نورها. بينما كنت أسرع خلفه وأختى تنادى على لأنتظرها حتى تهبط إلى الأرض.

وفى الصالة وقف أبى تحت المصباح. وأخرج سيجارته السوداء من جيبه وأخذ يشعلها. ووقفت أمامه مباشرة وتطلعت إليه. ورأيت عينيه محتقنتين.

جذبتنى أختى من يدى. كانت تريد أن تنام. وتخاف أن تدخل الحجرة بمفردها. واتجه أبى إلى البلكونة فى صمت. أما أنا فتبعت أختى إلى حجرتنا. فأضأت النور، وانتظرت حتى صعدت فوق السرير، ثم أطفأته وصعدت خلفها وتمددت فى الظلام.

تقلبت عدة مرات. وأنصت فى لهفة منتظراً أن أسمع صوت الراديو لأنام على الأغانى. لكن الراديو ظل صامتاً. ولم أسمع صوتاً واحداً من الشقة المجاورة.

سجن المحاريق

بالواحات الخارجة

1963

أبيض وأزرق

رفع المرشد اليونانى الميكرفون الصغير إلى فمه وقال بالإنجليزية فى صوت هادئ: "مرحباً بكم فى جزيرتنا".

كان يرتدى ملابس رياضية بادية الجدة: كاب وقميص قصير الأكمام وشورت وجورب فى حذاء من المطاط. وكانت جل ملابسه بيضاء اللون.

قال: "أنتم جميعاً مصريون وتتكلمون اللغة العربية. تماماً؟ للأسف أنا لا أعرف العربية، وسأضطر إلى مخاطبتكم بالإنجليزية. أنتم تعرفون الإنجليزية أليس كذلك؟"

تصاعدت صيحات الموافقة من جنبات الأتوبيس السياحى. ومضى المرشد قائلاً وهو يشير إلى السائق: "السائق اسمه ميخالى. مثلى تماماً. وهو كما ترون غاضب بسبب اضطرارنا للانتظار حتى يكتمل عددكم. باقى اثنان الآن. وقد فهمت أنهما عروسان. ولهذا يجب أن نتسامح معهما. ها هما".

ظهر الزوجان الشابان فى مدخل السيارة. وشقا طريقهما فى الفرجة الضيقة التى تفضل بين صفى المقاعد. ثم جلسا على المقعد المقابل لذلك الذى شغلته أنا وزوجتى.

كانت الفتاة سمراء ضئيلة الحجم، قصت شعرها كالصبية، وارتدت بدلة صيفية من قماش قطنى أصفر اللون، وحذاء ذا كعب مرتفع من نفس اللون. وامتلأت أصابع يديها بالخواتم الذهبية، كما تدلى الذهب من أذنيها وأحاط بكل من عنقها ومعصميها. وكان

عريسها فى نفس حجمها وسنها، تتدلى من سوار حول معصمه كاميرا صغيرة الحجم. رأتنا نتطلع إليها فخاطبت زوجتى شاكية من غباء موظفى الفندق وجهلهم باللغة الإنجليزية، إذ لم يفهموا إلا بصعوبة أنها تريد الحلى التى أودعتها خزانة الفندق بالأمس.

استدار المرشد بحيث أصبح يواجه الطريق، واستقر فى مقعد بجوار السائق، وما زال الميكرفون قريباً من فمه.

وانسابت السيارة فى شوارع هادئة تحف بها أشجار متقاربة على الجانبين، وتطل عليها منازل واطئة من طابقين أو ثلاثة. وكانت أغلب المنازل مكسوة بطلاء أبيض اللون.

قال المرشد: "نحن الآن فى الجزء الحديث من المدينة. أما المدينة القديمة فعمرها خمسة آلاف سنة. ولهذا توجد بها آثار لكل أنواع الغزاة وبناة الإمبراطوريات، بدءاً من قبائل أوربا والفينيقيين إلى اليونان والفرس والرومان. ثم القوط والعرب والأتراك. وأخيراً الإيطاليين والألمان والإنجليز".

لم أر كثيراً من المارة. كان أغلبهم من الشباب الأوربى الذى ارتدى الملابس الرياضية أو اكتفى بأردية السباحة.

توقفت سيارتنا خلف سيارة لجمع القمامة سدت الطريق. وتابعت ببصرى عاملاً يجر صندوقاً للقمامة بيد مقفزة، ويثبته فى مؤخرة السيارة لتتولى تفريغه آلياً. ثم أعاد الصندوق إلى مكانه بجوار الرصيف وجذب غيره.

تطلعت إلى الرصيف المقابل، فلمحت رجلاً متقدماً فى السن يبرز من باب ممسكاً بعصا طويلة تنتهى بفرشاة، طاوياً صحيفة أسفل إبطه. ومضى الرجل ينظف الإفريز أمام المنزل بعناية، ثم جمع الأتربة فى كوم صغير. وعاد إلى المنزل فأحضر جاروفاً استعان به فى نقل الأتربة إلى كيس أسود من البلاستيك. ثم وضع الكيس بعناية على حافة الرصيف واستدار داخل المنزل، فارتقى بضع درجات إلى شرفة صغيرة مكشوفة. واستقر فى مقعد من

الخيرزان أمام مائدة تحمل فناناً من القهوة وغليوناً. وبعد أن ارتشف من الفنجان، بسط صحيفته وانهمك فى إشعال الغليون.

تحركت سيارة القمامة أخيراً. وتبينتُ رتلا طويلاً من السيارات تكوّن خلفنا دون أن يصدر عن إحداها صوت ما. وتطلعت إلى حيث استقرت صناديق القمامة الفارغة فرأيت الأرض حولها نظيفة بلا أثر لما كانت تحويه من فضلات.

انحنى الأوتوبيس فى شارع خلا من المارة، امتدت على أحد جانبيه حديقة كبيرة كثيفة الخضرة، انتشرت فى أنحائها الورود البنفسجية الصغيرة التى كانت تملأ حدائقنا فى الصبا.

همست زوجتى: "وأنا طفلة كنت ألصق بتلات هذه الوردة على شفتى".

أحاط بنا هدوء عذب. ومضت السيارة على مهل. ولمحت شاباً وفتاة يتبادلان قبلة طويلة أسفل إحدى الأشجار. ولزم المرشد الصمت كأنما يتيح لنا أن نستمتع بالهدوء.

لكن الجالسين خلفى اختاروا هذه اللحظة بالذات ليفيضوا من سعادتهم بإنجازاتهم على الجميع. ودون أن أحرك رأسى عرفت أن خلفى مباشرة توأمتين فى ربيع العمر، تعيشان فى أبى ظبى مع أبيهما المهندس وأمهما المدرسة. وأن السلاسل والصلبان الذهبية التى تتدلى من عنقيهما هى هدايا أعياد الميلاد. وأنهما تتوقان لاستعراض مواهبهم فى رقصة البطن داخل السيارة.

أشرف الأتوبيس على أسوار حجرية قديمة تتخللها أبراج عالية. وعلق المرشد قائلاً: "أمامكم الآن التحصينات التى أقامها الفرسان الصليبيون فى القرن الخامس عشر عندما استقروا هنا بعد طردهم من الشام. وتعيّن هذه التحصينات حدود المدينة القديمة. لكننا لن نذهب إليها الآن. إنما سنتجه إلى قلب المدينة الحديثة حيث البنك. فلا بد أن بعضكم يود استبدال نقوده".

تصاعدت صيحات الاستحسان والاستفسار عن سعر الدولار، بينما انتقل الأوتوبيس إلى منطقة آهلة بالمارة والمقاهى والمطاعم الأنيقة.

ومع ذلك كانت الشوارع نظيفة للغاية، بلا حفر ولا أتربة. كما خلت الأرصفة من شتى المخلفات والإفرازات. وامتدت أفاريزها الحجرية فى استقامة، وقد التصقت أجزاؤها بعضها ببعض، التصاقاً محكماً لم يترك بينها أية فراغات. وأحاطت بقواعد الأشجار دوائر من التربة، مؤطرة فى عناية بأفاريز رفيعة من الرخام.

تناقصت المقاهى والمطاعم بالتدريج لتحل محلها البوتيكات وحوانيت الملابس والمجوهرات والأنتيكات. وتوقف الأوتوبيس فى ميدان صغير على بعد خطوات من البنك. وقال المرشد: "أحب أن أنبهكم إلى شئ هام بالنسبة إلى الشراء. فالجزيرة كلها عبارة عن منطقة حرة. ولهذا فالمنتجات الأجنبية هنا أرخص منها فى بلادها الأصلية، بل وأرخص من المنتجات اليونانية المحلية".

شرع الركاب فى مغادرة السيارة، فاكتشفت بينهم عدداً من المحجّبات، وسيدتين متلازمتين فى أواخر العقد الرابع، عريتا أكتافهما، فى محاولة متعجلة للحصول على شهادة التصييف.

توزعنا بين البنك وواجهات الحوانيت. وكنت أنا وزوجتى قد استبدلنا نقودنا فى الفندق عند وصولنا. فانتحيا جانباً مظللا ووقفنا نتأمل المارة. ولاحظت أن غالبية السائحين من الشباب، وأن نسبة كبيرة منهم من بلاد الشمال القصى، ومن الفتيات.

تبينت عدداً من الوجوه العربية. وسمعت اللهجة السعودية من زوجين ظننتهما إفريقيين بسبب لون بشرتهما. وكان الزوج البدين يحمل أكبر زجاجة ويسكى رأيتها فى حياتى، وقد حملها فوق ساعديه كالطفل الرضيع.

اقتربت العروس الصفراء منا ومدت يدها بالكاميرا الصغيرة إلى زوجتى، ملتمسة منها أن تصورها هى وعريسها. وأسرعت تقف إلى جواره فوق درجات البنك وقد أحاطها بذراعيه وأمسك معصميها بيديه.

لمحت حانوتاً لبيع الصحف، فتركت زوجتى تصور العريسين، ومضيت إليه.

ابتعت صحيفة يونانية باللغة الإنجليزية. وألفيت أخبار بيروت تحتل صدر الصفحة الأولى. ووصف العنوان الرئيسى الأمس بأنه أطول يوم فى الحرب التى تجاوزت الشهرين، إذ استمرت الغارات الإسرائيلية المكثفة من الصباح حتى المساء دون انقطاع.

قرأت التفاصيل،وتأملت الصورة المنشورة إلى جوارها، وتمثل طفلاً عربياً لم يكمل العام الأول، بتر الإسرائيليون يديه.

ألهبت أشعة الشمس رأسى، فطويت الصحيفة، واتجهت إلى السيارة. كان الجميع قد عادوا إليها، فصعدت خلف زوجتى.

التقت نظراتى وأنا أتجه إلى مقعدى بنظرات أحد الركاب، فوجهت إليه التحية مرغماً. وعندما أصبحت بجواره خاطبنى ضاحكاً: "هل عثرت على سر شويبس؟"

أجبته باقتضاب: "لا."

كان يشير إلى تساؤلاتى عن الطائرة المصرية التى أقلتنا من مطار القاهرة عندما رأيت أنها تحمل اسماً غير اسم "مصر للطيران" وأن بها مضيفات أجنبيات، وأنها تقوم برحلات إلى تل أبيب.

جاء مكاننا أنا وزوجتى هذه المرة خلف العروسين الشابين. وكانا يجلسان متلاصقين وقد أودعت يديها بين كفيه. واشتبكا فى حديث مع أم التوأمين تبينت منه أن العريس يعمل، هو الآخر، فى مكتب مقاولات بأبى ظبى منذ سنتين. وأن العروس تخرجت هذا العام من كلية التجارة.

وقبل شهرين تلفن لها من أبى ظبى ليسألها أن تتزوجه. ومنذ تلك اللحظة لم تعرف طعم النوم. فقد أصرت على أن تعد كل شئ بنفسها: الملابس والستائر والجاتوهات. وفى حفل الزواج الذى أقيم بالهيلتون كادت تسقط من الإعياء. وقد أقاما بعده فى الهيلتون ثلاثة أيام، ثم جاءا إلى الجزيرة مباشرة. ولهذا فما زالت فى أشد الحاجة إلى النوم.

تحرك الأتوبيس، بينما تشعب الحديث وانضم إليه شاب يدخن الغليون ويعمل فى الكويت، بدت زوجته حاملاً فى شهرها الثالث أو الرابع. وعرفت أن "الشو" الذى يقدمه الميريديان أفضل لأن "الباند" أكثر مهارة وتنوعاً.

أشار المرشد إلى بار يشبه بارات وسط القاهرة وقال: "هذه هى التافيرنا التى يجتمع بها اليونان عادة ليشربوا النبيذ والأوزو، ويأكلوا اللحم والأسماك المشوية، ويرقصوا ويغنوا... ويتشاجروا. وبالمناسبة: اليونانى شخص حساس جداً لكرامته. ويثور لأقل مساس بها. وربما كان السبب أنه ظل رافع الرأس طوال قرون طويلة من السيطرة الأجنبية".

كان ثمة رجلان بدينان يحتلان المقعد المقابل لمقعدى. وكانا يتحدثان بصوت مرتفع للغاية ينطق بثقة كبيرة فى النفس، ورضاء تام عن الإنجازات. وحكى أحدهما وهو يردد بين كل عبارة وأخرى "شوف سعادتك"، كيف صنع ثروته فى بورسعيد بعد أن صارت مدينة حرة.واتضح أن المدينة المعروفة هى موطن الثانى، وهو أستاذ فى الجامعة ذو عوينات سوداء وشفتاه ممتلئة، يعمل فى السعودية. وكان يدعو زميله "محمد بك". ومن معصم كل منهما تدلت الكاميرا الصغيرة المعهودة. ٥٩٩٣٠٤

أسميت محمد بك بينى وبين نفسى "محمد كرشة". وسمعته يقول إنه جاء بدون أسرته كى يفوز بعطلة حقيقية. وتبينت أن أسرة الأستاذ البورسعيدى تجلس خلفه مباشرة، وهى مكونة من سيدة محجبة تضع عوينات شمسية، وتغطى الملابس رأسها وساعديها حتى المعصمين، وبقية جسدها حتى أصابع القدمين. وإلى جوارها فتاة فى سن المراهقة موشكة على البكاء، وطفلان غيرها.

أشرفت السيارة على أحد أسوار المدينة القديمة، فقال المرشد: "لقد صدت هذه الأسوار غزوات أجنبية كثيرة. أقدامها وقع قبل الميلاد بثلاثة قرون عندما هاجمها أحد خلفاء الاسكندر الأكبر بجيش من أربعين ألفاً يساندهم أسطول قوى وآلات حصار مبتكرة. وصمد ستة آلاف من

المدافعين داخل المدينة لهذه القوة الماحقة سنة كاملة، حتى اضطر المهاجمون للانسحاب."

قام محمد كرشة فجأة من مكانه وعرض علبة من سجائر الدانهيل على الجالسين. وتوقف عند السيدتين عاريتى الأكتاف، وكانتا تجلسان خلفى. وسمعت إحداهن تقول أنها لا تدخن. بينما قالت الثانية إنها انتهت للتو من سيجارتها ولا تريد واحدة جديدة.

ألح عليها أن تأخذ السيجارة ملتمساً منها ألا تكسفه. واعتذرت مرة أخرى، فأصر قائلاً: "انت بتهينينى كده يا مدام". واضطرت فى النهاية أن تأخذ السيجارة، فأشعلها لها ثم عاد راضياً إلى مقعده.

وسمعت رفيقتها تهمس لها: "أيوه يا عم. ماشية معاك حلاوة".

تهمل الأتوبيس أمام بوابة قديمة فى السور فقال المرشد: "هذه البوابة تدعى بوابة الحرية. وهى تؤدى إلى أقدم حى فى المدينة بحى الفرسان".

اخترقت السيارة البوابة ومضت فى أزقة ضيقة تظللها الأشجار، ثم توقفت فى ساحة صغيرة تفرعت منها ممرات مهجورة.

علق المرشد قائلاً: "فى أعقاب انسحاب الصليبيين من الشام استقر ستمائة فارس من أعرق العائلات الأوروبية فى هذا الحى. وتعاهدوا فيما بينهم على حياة قوامها الزهد والعفة. ولم يكونوا يغادرون هذا الحى إلى بقية المدينة إلا فى جماعات، وفوق ظهور الجياد.

"وفى سنة 1522 هاجمهم الأتراك بمائتى سفينة ومائة وخمسين ألف جندى. ولم يكن مع الفرسان غير خمسة آلاف من السكان المحليين، وفرض الأتراك عليهم حصاراً استمر أربعة شهور ونصف، فقد الغزاة خلالها خمسين ألفاً من رجالهم، رغم أن الفرسان لم يتلقوا أية مساعدة من الخارج. فقد تخلى العالم المسيحى عنهم.

"وتمكن الأتراك أخيراً، بفضل أحد الخونة، من إحداث ثغرة فى دفاع الفرسان. واضطر هؤلاء إلى طلب الهدنة. واتفق الطرفان على أن يغادر مائة وثمانون فارساً – هم كل ما

تبقى من الفرسان – الجزيرة إلى مالطة بطريقة مشرفة. ومنذ ذلك الحين عرفوا بفرسان مالطة".

زمجر محمد كرشة قائلاً: "إحنا جينا نتفسح ولا نسمع محاضرات؟"

واصل الأتوبيس سيره بين الشوارع القديمة الضيقة حتى بلغ ساحة صغيرة احتشدت فيها الأتوبيسات السياحية الصغيرة.

غادر الجميع السيارة فتبعتهم أنا وزوجتى بعد أن بسطت الجريدة فوق مقعدنا. وعبرنا بوابة صغيرة إلى أزقة ضيقة رصفت بالحصى الكبير وتصاعدت من جنباتها رائحة القهوة المنعشة مختلطة بنغمات خفيفة من الموسيقى اليونانية.

تفرقت جماعتنا فى عدة اتجاهات. فالتف البعض حول باعة المرطبات والفطائر الذين وقفوا فى حوانيت الملابس والحلى والخزف. وكانت المعروضات مرتبة فى عناية ونظام ونظافة.

لم نشعر أنا وزوجتى برغبة فى الأكل، فمشينا نتفرج على السائحين، ونتأمل المعروضات، ونقلب بينها طويلاً دون أن يلاحقنا أحد أو ينهرنا أو يهيننا عندما يكتشف أننا لا ننوى شراء شئ. وتمهلت زوجتى أمام حانوت لبيع الحلى الذهبية، فتجاوزتها إلى ميدان صغير احتل جانباً منه فى مقهى تظلله الأشجار، واحتلت جماعات من السائحين الأوروبيين مقاعده، يجرعون البيرة من أكوابها الزجاجية التقليدية.

تنبهت فجأة إلى الهدوء الذى يسود المكان رغم زحام المارة وعمليات البيع والشراء ولحقت بى زوجتى فانتحينا جانباً، ووقفنا نستمتع بالهدوء، وعندما تعبنا من الوقوف اقتعدنا الرصيف الذى كان نظيفاً للغاية.

قمنا بعد قليل وانطلقنا عائدين، ومررنا بمطعم رصت موائده فى الهواء الطلق. ووقف أمامه صبى يلوح بقائمة الطعام، أشار لنا أن ندخل فخاطبته بالإنجليزية قائلاً "شكراً. ليس الآن. فى مرة قادمة".

سألنى بالإنجليزية: "من أى بلد أنتم؟ إسرائيل؟"

أجبته "لا. مصر"

قال بعربية مكسرة وبلهجة مستنكرة: "إذن لماذا لا تتكلم بالعربية؟"

تطلعت إليه لحظة ثم واصلت طريقى أنا وزوجتى فى صمت.

استأنف الأتوبيس جولته فى شوارع المدينة وبين الحين والآخر كان البحر يتراءى لنا من خلال شوارع جانبية تؤدى إلى ميناء ازدحم بالقوارب والسفن.

توقفنا فى ميدان صغير تتوسطه بحرية نافورة على شكل طبلة تكسوها مربعات من الخزف الأزرق المزوق برسوم. وفوق النافورة ارتفعت ثلاث رؤوس برونزية ضخمة للسمكة المعروفة بحصان البحر، وقد تلاقت قممها على شكل هرمى.

قال المرشد: "نحن فى ميدان الشهداء اليهود. وتعود هذه التسمية إلى عام **1943** عندما احتلت القوات النازية الجزيرة. فقد جمعوا هنا يهود الجزيرة كلهم، وكان عددهم يربوا على ألفى شخص، ثم قاموا بترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال المختلفة فى أوربا".

مررنا بمبنى قديم أشبه بالثكنة العسكرية، فقال المرشد إنه مسرح الفنون الشعبية. وانتصب واقفاً، واستدار يواجهنا وهو يضيف فى حماس: "هذا المسرح خصص دخل إحدى حفلات الأسبوع الماضى لضحايا الغزو الإسرائيلى للبنان".

لم يعلق أحد بشئ، فاستعاد المرشد هدوءه وأعطانا ظهره من جديد وغاص فى مقعده، انتقل الأتوبيس إلى شوارع غصت بالمقاهى والمطاعم والفنادق الحديثة. وانتشرت بها رائحة الياسمين. ثم خرجنا فجأة إلى شاطئ البحر.

استنشقت الهواء المحمل برائحة الأسماك فى لهفة. وبدت حافة الماء نظيفة من أى مخلفات. وبالمثل كانت رمال الشاطئ التى اصطفت فوقها مظلات المصيفين الملونة فى نظام بديع.

ثم صافحت عينى زرقة كثيفة لم أر مثلها من قبل. وكانت تزداد كثافة كلما قاربت الأفق.

توقف الأتوبيس إلى جوار رصيف الكورنيش. وشعرت بهرج مفاجئ بين الركاب.

وعندئذ تبينت أن بعض المستلقيات على الشاطئ قد عرين صدروهن.

حدقت سيدة محجبة فى استنكار، ووضعت عارية الكتفين التى لا تدخن، إصبعها فى شفتها متأملة المشهد فى ابتسامة خجلى وحاسدة فى الوقت نفسه. وتشبثت العروس بيد عريسها فى شدة كأنما تخشى أن يقفز هارباً.

ورفع محمد كرشة والأستاذ البورسعيدى ومهندس أبى ظبى كاميراتهم الصغيرة، وأقبلوا يلتقطون الصور فى حماس.

مدت زوجة الأستاذ البورسعيدى المحجبة يدها فجذبت الكاميرا بعنف من يد زوجها وهى تهتف: "احمد ربك على النعمة اللى عندك".

عقب المرشد ضاحكاً: "إن كل شئ فى بلادنا فى الهواء الطلق كما لاحظتم".

واصل الأتوبيس سيره على طريق الكورنيش. وكانت هناك أجزاء صخرية تخلو ن المصطافين. وأوشك رصيف الكورنيش أن يخلو من المارة. أما الجانب الآخر من الطريق قد خلا من أى حوانيت أو مقاه. كان يتألف فى أغلبه من منازل قديمة مسورة بجدران يضاء، أو مطاعم متباعدة ترتفع عن مستوى الطريق بعدة درجات.

كانت جدران المنازل نظيفة لا تحمل أية كتابة أو إعلانات. وفوق أحدها طبع عار المنجم والمطرقة المتعانقين بحجم صغير، وبصورة أنيقة.

أشار المرشد إلى شجرة أطلت من حديقة أحد المنازل وقال فى انفعال: "هذه شجرة هوذا، والزهرة القرمزية التى ترونها يندر أن يراها أحد فى هذا الوقت من العام. فهى ظهر فى الربيع قبل الأوراق. وتقول الأسطورة إن هذه الزهرة كانت فى الماضى البعيد احبة اللون. لكن إحساسها بالعار من جريمة يهوذا جعلها تكتسب هذه الحمرة القانية".

أضاف المرشد بعد قليل: "لقد أوشكت جولتنا على الانتهاء. وستعودون إلى فندقكم بعد حظات. وأظن أنكم تحتاجون إلى فكرة سريعة عن الأطباق الشهية.. أبرز هذه الأطباق "الضلمة".

وهى عبارة عن ورق عنب محشو باللحم المفروم المخلوط بالأرز والمتبل بالنبيذ والبصل والخضرة.

وهناك "الكفتة"، وهى كرات من اللحم المفروم المعجون بالبصل المبشور والقرفة والنعناع والنبيذ.

"ثم "المسكعة" وهى من أفضل الأكلات الشعبية هنا. وتتألف من شرائح الباذنجان واللحم المفروم، تتخللها طبقات من صلصة الباشاميل والجبن المبشور. أما عشاق الأكلات البحرية فأمامهم سمك البربونى المقلى والاستاكوز التى تقدم بالزيت والليمون، والأخطبوط الذى يقطع إلى شرائح ويقلى أو يسلق. ثم الكالامارى والجنبرى والسرطان".

اعترضتنا إشارة المرور الحمراء وانتظر السائق فى صبر وهدوء رغم أن الطريق الاعتراضى كان خاليا ولم تمر به سيارة واحدة. ولم نمض كثيراً بعد ذلك، فسرعان ما بلغنا الفندق. وأسرع الجميع بمغادرة السيارة وحملت الصحيفة فى يدى وتبعتهم مع زوجى.

عبرنا ممراً مسقوفاً بين صفين من النباتات الشائكة. ومن خصاص هذه النباتات بدا لى جانب من حوض السباحة التابع للفندق، وقد استلقت حوله عدة فتيات أوروبيات، عرضن أجسادهن العارية للشمس، وفوق عارضة الحوض استعدت شقراء فارعة، عارية الصدر، للقفز، وقد ثنت ساقيها القويين، وبرز ثدياها الممتلئان إلى الأمام.

ولجنا ردهة الفندق واتجهنا على الفور إلى المطعم. واجتزنا قاعة واسعة تناثرت المقاعد الوثيرة فى جنباتها، واستقر البار فى أحد أطرافها. وبالقرب منه عدة ألعاب تليفزيونية.

توقفنا أنا وزوجتى أمام إحدى هذه الألعاب. وعندما لحقنا بجماعتنا وجدنا أفرادها قد تجمهروا أمام المطعم. وكان بابه مغلقا، وقد اصطف أمامه عمال كل من المطعم والمطبخ فى ستراتهم الرسمية، وحملت مائدة مجاورة كمية من ساندويتشات الجبن واللحوم الباردة.

كان احد العمال مشتبكاً فى نقاش حاد مع عريس العروس الصفراء، بلغة إنجليزية متبادلة الركاكة. وسمعته يقول: "قلت لك إننا مضربون. ألا تعرف ماذا يعنى الإضراب؟ ألا يضرب أحد فى بلادكم؟ ومع ذلك أعددنا لكم بعض الساندويتشات، ومن لا

يعجبه يمكنه أن يأكل فى أحد المطاعم القريبة".

سأله البورسعيدى: "ونقودنا التى دفعناها؟"

أشار العامل إلى مكاتب الفندق قائلاً: "طالبوا بها الإدارة".

زمجر محمد كرشة قائلا: "المفروض إحنا جينا نصرف فلوسنا. إزاى يعاملونا بالشكل ده".

تدخل عامل متقدم فى السن موضحاً: "نحن لم نقصد الإساءة إليكم. إنما نحن نسعى للحصول على حقوقنا. فهذا الفندق يجنى أرباحاً طائلة فى فترة الصيف. ثم يغلق أبوابه فى أشهر الشتاء الخمسة. ويسافر أصحابه إلى الخارج حاملين أرباحه بينما نبقى نحن فى بيوتنا بلا عمل. أليس من حقنا أن نتقاضى أجراً عن هذه الفترة أيضاً؟".

تزعم الأستاذ البورسعيدى الدعوة إلى ملاحقة إدارة الفندق. بينما انطلق الآخرون إلى الخارج وعلى رأسهم محمد كرشة. وكنت أنا ممن أقبلوا على الساندويتشات. فأخذت واحدا لى وآخر لزوجتى مع كوبين من عصير البرتقال. وانتحينا ركنا فى القاعة الخارجية وجلسنا نلتهم طعامنا. ٥٩٩٢٠٤

لمحت الشقراء السامقة تلج القاعة من الباب المطل على حوض السباحة وتتجه إلى المصعد. وكانت قد غطت صدرها وارتدت شورتاً أسود اللون. وبدا جسدها الكبير عن قرب متناسق التفاصيل، يشع بجاذبية حيوانية. وقدرت أنها تنتمى إلى الشمال الأوروبى والعنصر الجرمانى على الأغلب. إلى أن سمعتها تخاطب زميلة لها بلهجة أمريكية واضحة.

فرغنا من الأكل وأشعلنا سجائرنا. وانهمكت زوجتى فى قراءة الصحيفة اليونانية، بينما قمت أتفرج على الألعاب التليفزيونية . وكانت شاشة إحداها تمثل طائرة تلقى قذائفها على أهداف متغيرة. كان اللاعب يبذل جهدا بالغاً فى التركيز، مستعيناً بيديه الاثنتين: واحدة تضغط زراً يسقط القذائف، والثانية تحرك مقبضاً يبعد الطائرة عن مجال الصواريخ المضادة لها.

لكنه فشل فى تسجيل أية نقاط بسبب بطئه فى متابعة الضغط على الزر وتحريك المقبض فى الوقت نفسه، فغادر مكانه آسياً. وفوجئت بالشقراء الأمريكية تحتل مكانه، وقد استبدلت ملابس السباحة بقميص وبنطلون أسودين التصقا بجسمها الفارع.

وضعت عملة معدنية فى ثقب بالجهاز، ثم جعلت تحرك يديها فوق الزر والقبض بسرعة فائقة. وتساقطت القنابل بدقة بالغة على أكواخ متفرقة تشبه أكواخ الهنود الحمر والزنوج الأفريقيين، وعلى جمال يمتطيها بدو فى صحارى شاسعة، ومنازل شاهقة تحيط بها الحدائق.

نادتنى زوجتى، فتبعتها إلى المصعد. ولاحظت أن بقعة من الدماء تلوث ملابسها من الخلف فنبهتها إلى ذلك. ناولتنى الصحيفة ومدت يدها خلفها فجمعت الفستان فى قبضتها لتخفى البقعة. وعندما بلغنا حجرتنا، هرعت إلى الحمام.

ألقيت بالصحيفة فوق مقعد. وعندئذ اكتشفت أن الغرفة ما زالت كما تركناها فى الصباح. ورأيت لافتة من الورق القوى على مائدة الزينة وكانت تحمل بحروف كبيرة هذه العبارة: "نحن مضربون". وأسفلها التوقيع: "عمال النظافة".

أشعلت سيجارة وخرجت إلى الشرفة. وجلست أتأمل البحر الذى هبت منه نسمة باردة، بينما أشعة الشمس القوية تلتمع فوق الأجساد المشوقة التى استلقت على شاطئه.

ومن أعماق المدينة الصغيرة جاءتنى نغمات البوزوكى اليونانى تحمل آثار النواح العربى، الذى تسلل إليها ولا شك عبر أربعة قرون من القهر التركى.

انتهت سيجارتى، فولجت الحجرة لأطفئها فى المنفضة. وكانت زوجتى قد غادرت الحمام واستلقت على الفراش. فاستلقيت إلى جوارها، ووضعت رأسى على كتفها. وبعد لحظة أحطتها بذراعى فقالت فى رقة: "لقد نزفت اليوم بشدة".

قلت: "وأنا أيضاً".

مصر الجديدة 1982

المحتويات